الاستعارةُ غيرُ المفيدةِ" .. مُفِيدَةٌ

وجهة نظر جمالية

تعليق على الإمام عبد القاهر

إعـداد

الأستاذ الدكتور/ محمد كاظم حسن الظواهري

أستاذ الأدب والنقد المتفرغ

في كلية اللغة العربية بالمنوفية – جامعة الأزهر

١٤٤٥ هـ- ٢٠٢٣م

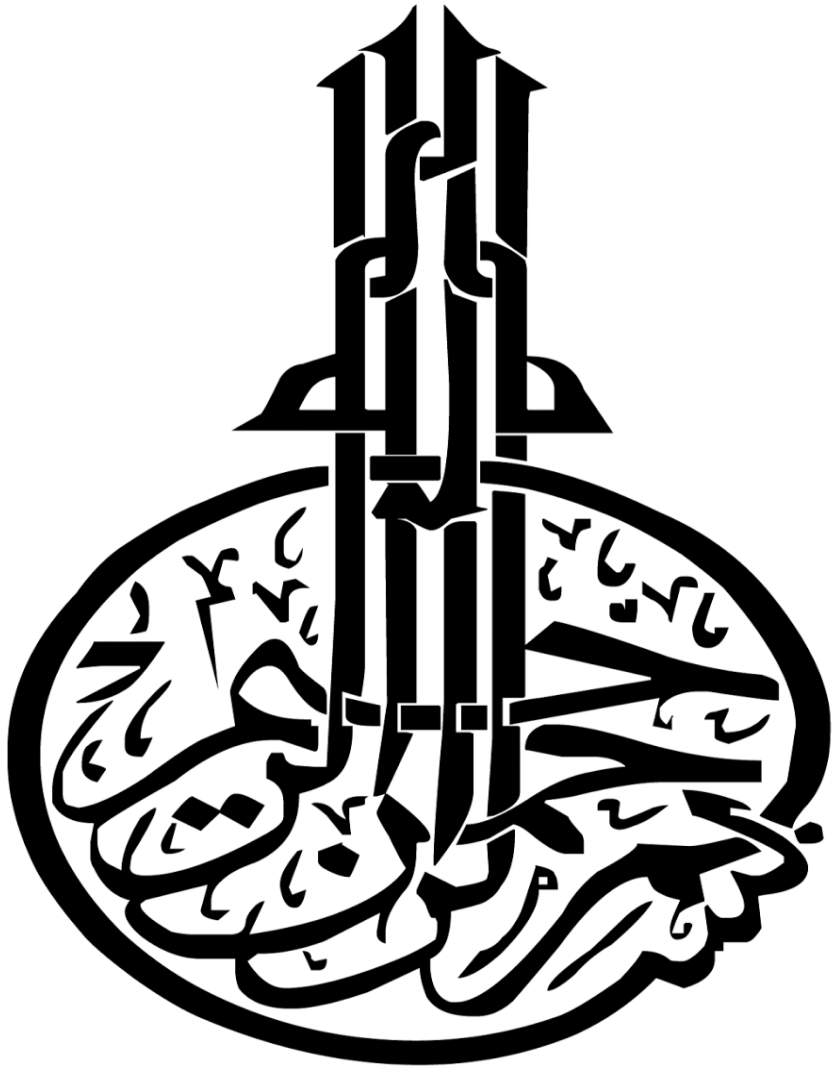

الاستعارة "غير المفيدة" .. مفيدة ، وجهة نظر جمالية تعليق على الإمام عبد القاهر

محمد كاظم حسن الظواهري
فسم الأدب والنقد، كلية اللغة العربية بالمنوفية، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني:
Kazemalzawahry@hotmail.com

ملخص البحث:

لقد كان للغايات النبيلة والأهداف السامية لعلماء الحضارة الإسلامية الأفذاذ تأثير سلبي لم يتعمدوه علىٰ الجوانب الجمالية الكامنة في التراث الأدبي للغة العربية ؛ إذ انصرف همُّهم في جمعهم للغة وتقعيدها إلىٰ الحفاظ عليها ؛ لأنها لغة القرآن الكريم بصفة أساس والحديث النبوي كذلك ، ومن ثَمّ لغة حضارة الإسلام وتراثه. وكان من أبرز وجوه هذا القصور ما نلمسه من قطع النص من سياقه لتقرير ما طلبوه لأجله وكونه شاهدا عليه ، فلم يلتفتوا للجوانب الجمالية التي هي الغاية الحقيقية التي كان يرمي إليها المبدع وللبناء الفني للنص ؛ فترتب علىٰ ذلك قصور في النظر إلىٰ النص المقطوع ، وربما صدر عنهم رأي أو حكم يفتقر إلىٰ الدقة ، وهذا ما أدركه ونبه عليه عدد من رموز حضارتنا ، منهم الجاحظ. وهذا ما دعا لمناقشة الإمام الجليل عبد القاهر الجرجاني تقسيمه الاستعارة إلىٰ مفيدة ، وغير مفيدة ، وكذا من سبقه بالقول بالاستعارة "القبيحة" أو "الفاحشة" ، وهي نقل اسم عن أصل وضعه ليحل محل اسم آخر وهما في الأصل واحد باختلاف جنس المدلول عليه ، وهذا ما أثبتنا بالدليل أنه حكم غير سديد ، وذلك بعد رد الشاهد إلىٰ موضعه من سياق النص أو القصيدة ليظهر جليا الداعي الذي حدا القائل المبدع إلىٰ استعارته وهو علىٰ علم يقيني بالفرق بينهما وأبلغية الاستعارة. وترتب علىٰ ذلك بالضرورة المنطقية أن النقل غير الواعي – الذي سببه الجهل بأصل الوضع أو الغفلة أو الإهمال لا يعد استعارة بالمرة ، وتكون المحصلة النهائية أن كل استعارة

نافعة ، وأن تلك الأوصاف : "قبيحة" ،"فاحشة" ،"غير مفيدة" لا أصل لها ؛ فإما استعارة أو لا استعارة ، وأن التقسيم فاسد لا يصح في عرف الإبداع الجمالي الأدبي.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة – المفيدة – غير المفيدة– التشبيه– القرينة– الشاهد –السياق – البناء الفني .

The "unhelpful" metaphor... is useful An aesthetic point of view, comment on Abdel Qahir

Mohammad Kazem Hassan Al-Zawahiri
Department of Literature and Criticism, Faculty of Arabic Language in Menoufia, Al-Azhar University, Egypt
Email: Kazemalzawahry@hotmail.com

Abstract:

Study idea: The noble goals and lofty goals of the distinguished scholars of Islamic civilization had an unintended negative impact on the aesthetic aspects inherent in the literary heritage of the Arabic language. As their concern in collecting the language and its complexity was focused on preserving it; Because it is essentially the language of the Holy Qur'an and the Prophet's Hadith as well, and therefore the language of Islamic civilization and heritage. One of the most prominent aspects of this deficiency was what we see in cutting the text out of its context in order to determine what they asked for and to be a witness to it. They did not pay attention to the aesthetic aspects, which are the true goal that the creator was aiming for, and the artistic construction of the text. This resulted in a failure to look at the cut text, and they may have issued an opinion or judgment that lacked accuracy, and this is what a number of symbols of our civilization realized and alerted to, including Al-Jahiz. This is what prompted the discussion of the venerable Imam Abd al-Qahir al-Jurjani's division of metaphor into useful and unhelpful, as well as those who preceded him by saying the "ugly" or "obscene" metaphor, which is the transfer of a noun from its origin in order to replace another noun, and they are essentially the same depending on the gender of what is signified, and this What we have proven with evidence is an incorrect ruling, after returning the evidence to its place in the context of the text or poem so that the motivation that prompted the creative speaker to borrow it becomes clearly apparent

while he is fully aware of the difference between them and the eloquence of the metaphor. It follows from this by logical necessity that the unconscious transference - which is caused by ignorance of the origin of the situation, inattention, or negligence - is not considered a metaphor at all, and the final result is that every metaphor is useful, and that these descriptions: “ugly,” “obscene,” “useless,” have no basis. she has ; Either it is a metaphor or it is not a metaphor, and the division is corrupt and not valid in the tradition of literary aesthetic creativity.

Keywords: Metaphor- Useful- Unhelpful Simile- Context- Witness- Context- Artistic construction.

المقدمـــة

لثلاثين سنة خلت توقفت مليا عند وصف الإمام الجليل عبد القاهر الجرجاني في كتاب أسرار البلاغة بعضَ الاستعارات بأنها غير مفيدة، ثم استثناؤه منها بعضا جعله مفيدا، ثم في موضع متأخر من الكتاب بدا مضطربا مترددا حول هذه الفكرة، وحان لي من الفراغ ما سمح بإعادة النظر في النصوص التي استشهد بها فبدا لي أنه ربما تسرع في الحكم أو أنه لم يلتفت لموضع الشاهد من السياق المشكِّل للبناء الفني للنص، (وهذا مما كان يعتاده بعض العلماء لطبيعة اهتماماتهم)، فقررت تجربة ردِّ الشاهد إلىٰ موضعه من السياق وبحث مغزاه لتبيُّن ما إذا كان مفيدا أو غير مفيد، وكررت ذلك مع العديد من شواهده، ما نعته منها بالمفيد وغير المفيد، فكانت المحصلة هي هذه المقالة.

ومن المهم الإشارة إلىٰ دراسة الزميل أحمد هنداوي هلال رحمه الله: "رؤىٰ جديدة في الاستعارة غير المفيدة"، وهي دراسة جديدة سبقت مقالتي هذه بأعوام حالت بيني وبين الاطلاع عليها لغيابي خارج البلاد، وقد وافق ما رأيته أو كاد مقدما مادة جديدة عكف علىٰ استخراجها من لسان العرب الذي قرأه قراءة متأنية وغيرَه من المصادر، ولم يمنعني إعجابي بها من العزم علىٰ نشر هذه المقالة بعد إعادة النظر فيها، وذلك لسبب أراه وجيها وهو أني أتبني وجهة نظر مختلفة عن نظرته البلاغية الصِرفة التي لا تكاد تخالف ما سار عليه نهج السابقين وعبد القاهر خاصة من الإقرار بوجود هذا الضرب من الاستعارات أيا كان مسماه ، وأنا أنكر وجوده بالمرة ، وكذا النظر في الصورة الجزئية التي ورد فيها اللفظ المنقول أو الصورة البيانية، ونظرتي تتبني الوجهة الأدبية الفنية الجمالية من جهة، ومن جهة أخرىٰ تتأمل السياق الذي وردت فيه اللفظة المشار إليها والبناء الفني للقصيدة –إن

وجدت- والتي تتضح من خلالها داعية نقل اللفظة المنقولة، ولا يحول ذلك دون الاعتراف له بالسبق وتزويدي بمادة كنت في أمسِّ الحاجة إليها، وإن اختلفت وجهة النظر بيننا في بعض المواضع.

وقد رأيت مؤخرا أني لو تريثت أكثر مما فعلت حرصا علىٰ توفية الموضوع حقه بما تجمع لدي من مادة وأفكار لما نشرت عملي هذا في أمد منظور؛ فانتهيت إلىٰ نشره علىٰ حاله علىٰ غير حال من الرضا به، فهذا علىٰ الأقل أفضل من عدم نشره، وأرجو أن أكون قد وفقت فيما أقدمت عليه، وإن لم أكن .. فعذرا.

كاظم الظواهري

رؤيـة الإمـام

في كتاب أسرار البلاغة فاجأنا الإمام عبد القاهر بالبدء بذكر الاستعارة مقدما إياها علىٰ المجاز والتشبيه مُقرّاً بأن الأصلَ تقديمُهما عليها باعتبار أنها فرع عليهما كليهما، ورأىٰ أن ثمة اعتبارات اقتضت ذلك دون أن يفصح عنها! ووعد باستئناف الحديث عنها فيما بعد، أي بعد استيفاء الحديث عن هذين الأصلين، وقد فعل كما سيتبين فيما نسوقه من كلامه عن الاستعارة في صدر الكتاب وعجزه.

ثم عاد ليفاجئنا مرة أخرىٰ في بدء حديثه عن الاستعارة بتقسيمها قسمين ، بعد تعريف مقتضب لها، ذهب إلىٰ جعل أولهما الاستعارة المفيدة والآخر غير المفيدة[1]، **وجعل غير المفيدة** نقلَ اسم عن أصل ما هو له في اللغة إلىٰ غير ما هو له مما وضع في اللغة نقلا علىٰ سبيل التوسع والتنوق في مراعاة دقائق الفروق في المعاني المدلول عليها وهما في الأصل واحد كالشَّفة والمشفر والجحفلة، لكل من الإنسان والبعير والفرس، من حيث إنها جميعا وصف لعضو واحد من الكائن الحي، اختلف في تسميتها باختلاف الكائن الذي هي منه، فلو استعمل الشاعر شيئا منها في غير الجنس الذي وضع له فقد "استعاره" ونقله عن أصله وجاز به موضعه.

وقد مثل الإمام ببعض الأمثلة لهذه الاستعارة غير المفيدة منها قول العجاج:

وفاحما ومرسنا مسرجا

وقول أبي النجم:

تسمع للماء كـ صوت المسحل ... وريدها وبين الجحفل

(١) أسرار البلاغة ٣٢ : ٣٩ ، ٤٠٤.

وقوله:

والحشو من حفانها كالحنظل

وقول أبي دؤاد:

فبتنا جلوسا لدىٰ مهرنا ننزِّع من شفتيه الـ ُّصفارا

وعقَّب الإمام علىٰ هذه الأمثلة بأن هذا ونحوه لا يفيدك شيئا، لو لزمت الأصلي لم يحصل لك، ويرىٰ أنه لا فرق من جهة المعنىٰ بين قوله "من شفتيه" وقوله "من جحفلتيه"؛ لأن كلا اللفظين دال علىٰ العضو المعلوم فحسب ، وزاد فوق ذلك أنه يرىٰ أن الاستعارة ههنا بأن تنقص جزءا من الفائدة أشبه؛ لأنها – فيما يرىٰ – تثير شبهة لدىٰ السامع، وكذا استعارة المرسن وغيره مما ذكر.

واحتج الإمام بأن مترجما لو ترجم نصًا فيه شيء من ذلك إلىٰ لغة أخرىٰ ليس فيها نظائر لهذه الأسماء وذكر العضو الأصلي في مكان المنقول لما كان مخطئا، بعكس ما يفعله فيما يفيد التشبيه نحو "قابلت أسدا" والمقصود "رجلاً شجاعًا" يكون مخطئا بترك ما يفيد التشبيه ومفسداً للتعبير لتجاهله الاستعارة.

وفي ثنايا عرض الإمام للفرق بين نوعي الاستعارة نراه يعرض نوعا منها هو عين "غير المفيدة" بحسب ما قرره آنفا، ويجعله مع المفيدة بفارق وضعه، هو أن الضرب الأول الاستعارة فيه في اللفظ فقط، لا تتعداه إلىٰ المعنىٰ، ولا تفيد معنىٰ التشبيه، ولا تقترن بقرينة توحي به، بعكس الثانية التي يراها في المعنىٰ لا في اللفظ، وفيها معنىٰ المشابهة، وتقترن بقرينة توحي بها، ومثّل لها بقولهم: إنه لغليظ الجحافل، غليظ المشافر، كقول الفرزدق:

فلو كنت ضبيا عرفت قرابتي ولكنَّ زنجيا غليظ المشافر

وقول الحطيئة:

قروا جارك العيمان لما جفوته عن برد الشراب مشافرُه

وقول الأعرابي: كيف الطَّلا وأمَّه ؟

وشواهد أخرىٰ كأنه أراد بها أن يستثني من غير المفيدة في ظل شروط برر بها هذا الاستثناء.

ثم عاد الإمام في آخر الكتاب إلىٰ الاستعارة غير المفيدة في معرض التمييز بين المجاز والتشبيه والاستعارة وما بينها من علاقات وعلامات فارقة ، وفي معرض التمييز أيضا بين ما دخل في باب الحقيقة من المجازات لشيوعه بحيث يغلب علىٰ المعاني الأصلية للألفاظ ، وأُلحِق بها في المعاجم وكتب اللغة والأدب، مقرراً أن المجاز أعم من الاستعارة وأنه لا يعد من قبيل الاستعارة إلا ما كان نقله عن أصله إلىٰ غيره للتشبيه علىٰ حد المبالغة، موافقا العلماء في ذلك، وأن ما عدا ذلك لا يدخل باب الاستعارة وإن عُدَّ من المجاز، وأن من يدَّعي ذلك فعمله من قبيل ضعف الرأي وقصور النظر(١).

ولما وضّح معنىٰ الاستعارة وحدَّها عاد إلىٰ غير المفيدة ذاكراً بعض ما سبق عرضه آنفًا من أمثلة مقرراً أنه يضَنُّ باسم الاستعارة أن يقع عليه، وأنه لما رآهم – أي العلماء– خلطوه بالاستعارات وعدّوه معدَّها كرِه التشدد في الخلاف فأعتد به في الجملة منبها علىٰ ضعف أمره بأن سماه "استعارة غير مفيدة"، وأعاد – أو كاد – ما ذكره آنفًا في صدر الكتاب(٢).

(١) الأسرار ٣٩٩ : ٤٠٤.

(٢) نفسه ٤٠٤ : ٤٠٦.

التعليق

وهنا يبدأ مجال التعليق علىٰ هذا الباب الذي كلل به الإمام مبادرات سابقيه باستحداث مصطلحه الذي لم يُسبق إليه، ووضع له ما يشبه الضوابط الحاكمة الفارقة التي تفرق بين نوعين من الاستعارة تطرق إليهما بعض من سبقه ولكنهم سموها بأسماء غير ما ذهب إليه نحو "القبيحة" و"الفاحشة"[1]، وهذه الضوابط هي:

- **أن يقصد إلى المعنى لا إلى اللفظ وحده.**
- **أن تفيد معنى التشبيه.**
- **أن تكون مصحوبة بقرينة توحي بالمعنى المقصود.**

ولما أخذ الإمام في التمثيل لهذا النوع بشواهد من الشعر العربي وردت فيها ألفاظ منقولة عن أصل ما وضعت له في اللغة إلىٰ آخر غيره هوَّن من شأن هذا النقل بعلّة أن المنقول منه هو عين المنقول إليه من حيث وضعه، ولم يختلف إلا الشيء الذي نقل منه عن الشيء الذي نقل إليه، وهذا فيما يرىٰ مجرد وضع لفظ مكان لفظ دون أن يؤثر في المعنىٰ أو يُشتمَّ منه قصد التشبيه من وراء إعارة لفظ مكان لفظ ، ويتبين فيما عرض الإمام في هذا الموضوع في مواضعه المذكورة أنه كان مترددا مضطربا، ولست منفردا بهذا الرأي؛ فقد سبقني به الدكتور محمد أبو موسىٰ فيما عرض له منه في كتابين له[2]، وهنا موضع الخلاف الذي استدعىٰ هذا التعليق.

---

(١) ينظر في ذلك دراسة الزميل أحمد هنداوي هلال رحمه الله: "رؤىٰ جديدة في الاستعارة غير المفيدة"، وقد سبقت إشارة إليها، أما عن إطلاق اسم الفاحشة والقبيحة فلا أرىٰ له وجها مقبولا بالمرة، ولا مبررا يبرره إنما هو تعبير لغوىٰ سديد سواء بقي في باب الحقيقة أم نقل إلىٰ المجاز والاستعارة.

(٢) التصوير البياني: ٣٤٥، البلاغة القرآنية: ٢٠٠.

(١)

وسوف يتبين فيما بعد أن الإمام قد نعت بعض ذلك النقل بأنه مفيد لأنه نظر إليه في موضعه من السياق، وهذا ما لم يفعله مع غيره من الشواهد التي ألحقها بغير المفيد، ويلحظ أن هذه الشواهد لا تكاد تختلف عن غيرها من حيث إجرائية التصوير وطرائقه، بل إن من يتحرىٰ الدقة والغوص وراء الاستعارة والسياق الذي وردت فيه يتبين له توافر هذه الشروط التي وضعها الإمام في كل الشواهد سواء بسواء، ولكن آفة الشواهد البلاغية وغيرها أتت من قطعها من سياق النص؛ فأفقدت الشاهد صلة المعنىٰ الجزئي بالفكرة العامة للنص كما يقطع جزء من صورة فيسبب تشوها فيها، ولا يتبين للمبتور معالم تحدد ماهيته!

ولما كانت القضية في جوهرها تتسلط علىٰ طريقة نقل اللفظ من مدلول إلىٰ آخر هو في ظاهره مجرد مرادف له، ويعبر عنه بلفظ آخر في مواضعات اللغة، فلا مفر من افتراض ثلاثة فروض يدور حولها هذا النقل:

أولها: أن يكون الناقل على وعي تام بما يقوم به وعلىٰ علم بدقائق مدلولات كل لفظة مما يتناوله وبالفروق الدقيقة بين كل لفظة وأخرىٰ، ومقامات التعبير التي تقتضيها، وهو في ذلك فنان يعي ما ينهض به من تكوين للصورة الفنية التي يقدمها من خلال أسلوبه هذا.

الثاني: الذي يقوم بالنقل جاهلا لا يعي شيئا مما سبق ذكره.

الثالث: الذي يغاير بين الألفاظ بالنقل بلا مبالاة ولا يراعي التدقيق في الاختيار والاستعمال.

فالعباءة والجبة – مثلا – والجلباب والسترة والقفطان والقميص والصُّدار والشعار والدرع وغير ذلك مما يلبس أعلىٰ الجسد لكل إنسان ويستره كله أو

بعضه، فالذي يعي الفروق الدقيقة بين مدلولات هذه الأسماء ولا يخطئ الدلالة علىٰ كل ما يعبر بها عنه ، وهو حري بأن يكون نقله أيا منها عن أصل وضعه عن علم ووعي وقصد لغاية بعينها، لاسيما الأديب والشاعر، مادحا مُحسّنا كان أم ذاما ساخرا أم جادا أم هازلا أم غير ذلك، فهذا لن يكون نقله الواعي إلا لغاية جماليةٍ وأنه قصد بها الاستعارة مراعيا مقوماتها، ففي حالتنا هذه ستكون استعارته مفيدة إلىٰ أبعد حد، ولا أغالي إذا قلت إنها أبلغ أحيانا من غيرها وأكثر إثارة للإعجاب والدهشة والمتعة مما يوصف بوصف المفيد لعمق دلالته وبعد مناله كالسهل الممتنع.

أما الآخران: الجاهل والمُتهاون فلا يعد نقلهما من قبيل الاستعارة بالمرة، فالجاهل أطلق اللفظ ظانّـًا أنه استعمله فيما هو له؛ لأنه جاهل بأصل وضعه وخصوصيته، وعليه لم يذهب إلىٰ استعارته، فهو في هذه الحالة يقاس علىٰ الدهري إذا قال: أنبت الربيع البقل، خلافا للمؤمن إذا قالها[1].

ومثله المتهاون الذي لا يرىٰ جدوىٰ ولا ضرورة لهذه الاختلافات في التسميات أو يراها من المترادفات، فعندما يستعملها لا يكون مستعيرا للفظ في غير ما وضع له لأنه يراه فيما وضع له.

وهذا الفارق بين من يعمد إلىٰ الاستعارة عن وعي وعلم ومن لا يدري أحسبه من البدهيات التي لم ير الإمام عبد القاهر داعيا لتعقبها وإن كان قد المح إليها في بعض كلامه، ولعله في تسمية هذا الضرب من الاستعارات نظر إلىٰ من لا يدرك هذه الفروق سواء مَن كان منهم مِن المبدعين أم مِن المتلقين، وذلك أنه لم يسقطها من

(١) مفتاح العلوم : ٩٤.

باب الاستعارة جملة وإنما اكتفىٰ بتسميتها غير مفيدة كحل وسط درءا للخلاف بينه وبين غيره[١]. وكان الأجدر بالإمام أن يضرب صفحا عن هذه المسألة، وبالزميل أحمد هنداوي أن يحيي الإمام علىٰ أعماله الخالدة، ويحذف من بينها تلك الإشارة إلىٰ فضله علينا في بيان الفرق بين الاستعارتين(٢).

وعلىٰ هذا نرىٰ أنه ليس هناك ما يسمىٰ استعارة غير مفيدة بالمرة من المنظور الفني الخالص، فإما أن يكون النقل استعارة أو لا يكون، وما توصل إليه الإمام لمن يتدبره ليس تفريقا بين مفيد وغير مفيد من الاستعارة، وإنما هو تفرقة بين الاستعارة وعدمها بفارق وعي ناقل اللفظ بما ينقل وداعية النقل.

وثمة أمر مهم لا ينبغي إغفاله، هو من الكثرة في التراث العربي بمكان ويظهر أثره في المعاجم وكتب التفسير، أعني ألفاظ اللغة التي انتقلت بكثرة التوارد عليها بالتوظيف في غير ما وضعت له علىٰ سبيل المجاز، وشاع استعمالها حتىٰ لحقت بالحقيقة وتناقلتها الأجيال المتعاقبة وصارت كالمترادف حتىٰ حق لابن جني أن يقول بأن أكثر اللغة مجاز لا حقيقة[٣]، ومن أمثلة ذلك بعض ما يختص به الحيوان والطير من الأعضاء والأوصاف فاستعير للإنسان، لاسيما في تقبيح الحسن وتحسين القبيح أو الكناية عما يستقبح ذكره كالكوم والسفاد والغشيان والرصع في النكاح[٤]، والظفر والظلف والمخلب، والخرطوم والأنف من الأعضاء، وفي الأماكن كالخلاء

---

(١) الأسرار : ٤٠٤.

(٢) رؤىٰ جديدة : ٢٧٩.

(٣) الخصائص ٢/ ٤٤٧ ، وجدير بالذكر أن ابن الأثير رد هذا الرأي كما ردَّ رأي مَن نعتها بأنها كلها حقيقة ، و قال "إن كلا المذهبين فاسد عندي" المثل السائر ١/ ٨٥.

(٤) يُنظر: رؤىٰ جديدة : ٢٩٦- ٢٩٧.

والكنيف والمرحاض في قضاء الحاجة ، وغير ذلك فماتت الاستعارة ونسي النقل والمجاز أو تنوسي، وصار حقيقة أو كالحقيقة، وشاع الجهل بالأصل بين العامة وربما بعض الخاصة، وعلىٰ الرغم من أهمية ذلك في تطور الاستعمال اللغوي استجابة لتطور الحياة فإن له خطرا كبيرا علىٰ مستقبل تعامل الأجيال التالية مع التراث بدءا بالقرآن وتفسيره وصولا إلىٰ لغة الحياة العصرية مرورا بكنوز التراث، وأيضا (وهو مما يعنينا هنا) التساهل في التعامل مع عواقب هذه الظاهرة، وتجاهل أصل الاستعمال وإهدار قيمة الإبداع الفني المعتمد علىٰ هذا النقل بعدم إدراك جمالياته التي قصد المبدعون التعبير به عنها، وقد يصل هذا إلىٰ بعض جماليات أساليب القرآن والحديث، وفي هذا ما فيه من النيل من بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم، وجوامع كلم الحديث الشريف، وهذه الحالة اللغوية وغيرها من أسباب حدوث ظاهرة الترادف علىٰ اختلاف بواعثه تدفعنا بشدة إلىٰ الوقوف مع اللغويين والبلاغيين الذين يميلون إلىٰ القول بأن الترادف المطلق لا وجود له إلا في حالات نادرة، وأن كل دال له مدلول وكل اسم له مسمىٰ، وكل وصف له موصوف، وكل فعل له مدلول من الأفعال، وأن ثمة فروقا دقيقة بين كل ذلك، ولا يعني خفاؤها عدم وجودها.

ولا أريد لمناقشتي هذه أن تتوقف كثيرا عند قضية الترادف فلندعها لرجالها ومصادرها ونقتصر علىٰ ما يدحض القول بالاستعارة غير المفيدة، ويدفع ما قد يترتب علىٰ ذلك من وصف بعض أساليب العربية بأنها غير مفيدة، وأسوأ من ذلك وأمرّ وأدهىٰ أن ينسحب بعض ذلك علىٰ أساليب من القرآن والسنة فيكون قولا عظيما ترتب علىٰ وهم عظيم !.

ويكفي في ذلك أن الاعتقاد بوجود الترادف وشيوع استعمال المنقول في مكان الأصل وكأنه هو الأصل سوف يؤثر بالسلب علىٰ هذا الضرب من الاستعارة، وعلىٰ إمكان إدراك قيمتها فيما ورد منها في التراث الأدبي ويسبغ ثوب التصديق بضَعف هذا الأسلوب أو عدم فائدته لدىٰ متلقيه فلا يعود يؤثر فيهم كما كان من قبل ولذلك لا مفر من المضي فيما نحن بصدده لما نجده فيه مما يثبت جمالية هذه الظاهرة في مواجهة القول بعدم فائدتها، وأيضا لبقائها في التعبير الأدبي لدىٰ من يدركون مراميها المعنوية والجمالية، وأخيرا لما نأمله من تقدم ونمو للثقافة العربية في جميع المجالات وعلىٰ رأسها الوعي باللغة العربية وأدبها.

وقبل أن نستأنف مهمة إثبات فائدة الاستعارة فيما عمد إليه الناقل عن وعي دون تفرقة بين ما يعاب وما يستحسن فيما يصفه، علينا أن نضع نصب أعيننا أن الفروق بين هذه المسميات هي في حد ذاتها ذات فائدة جليلة لدىٰ واضعيها القدماء، ولولا ذلك ما فُرِّق بينها في التسمية، وهو ما أقر به الإمام عبد القاهر حيث قال "**مراعاة الدقائق في الفروق بين المعاني المدلول عليها**"، وأقر به غيره من العلماء فلا شك أن شكل الأنف من الإنسان يختلف اختلافا بيّنا عن أنف الفيل والخنزير، وأنف الجواد فناسب الأول تسميته أنفا والثاني خرطوما والأخير مرسنا ، وصوت الإنسان كلام والكلب نباح والماعز ثغاء والغراب نعيب والضفدع نقيق والأسد زئير ....، وولد الإنسان غير المهر والحوار والجرو والشبل والفصيل والفرخ والدغفل والديسم، كل ذلك سمي باسم غير الآخر مراعاة لاختلافات كثيرة لا تخفىٰ ، فنحن لم نسمع طفلا ينبح أو يقول: جرررر، ولم نسمع جروا يقول: واااء ، فمن المؤكد أن لهذه الأسماء والصفات صلة بالأشكال والطباع والسلوك والأصوات وما إليها ، وهذا عين ما يمكن القياس عليه كشَفَةِ الإنسان في رقتها

وجمالها ومِشفر البعير في غلظه وتشققه وجحفلة الفرس في ضخامتها وسوادها ... وهلم جرا.

فإذا اطمأننا إلىٰ ذلك ودلفنا من حيث توصلنا إلىٰ ما يراد من استعارة أمثال هذه الألفاظ نقلاً لها عن أصل وضعها بطريق المجاز فلن نذهب بعيدا، بل إلىٰ أقرب ما يمكن به اتضاح مدىٰ فائدة ما قيل عنه إنه غير مفيد بسبب انتزاعه من سياقه وقطع صلته به؛ فنرده إلىٰ سياقه ردا جميلا واجبا حقا علىٰ الدارسين وحقا للمبدعين، ولن أذهب بعيدا أيضًا عندما أقول إن المذهب الذي سوف أتبعه في إثبات فائدة الاستعارة هو هو المذهب الذي اتبعه الإمام في إثبات فائدة ما رأىٰ فيه فائدة من نماذجه ولم يعمد إلىٰ اتباعه مع ما أنكر عليه الإفادة ، حيث إنه اعتمد علىٰ السياق وبنية النص ومناسبته ليثبت وجود عناصر فائدة الاستعارة في هذه النماذج (تحت عنوان وضعه الشيخ شاكر هو الاستعارة اللفظية الناظرة إلىٰ المعنوية[1].

(١) الأسرار، ص: ٣٦، ولنا إليه عودة.

(٢)

وليكن المثال الأول من اختيارات الإمام لما مثّل به للاستعارة غير المفيدة هو قول أبي دؤاد الإيادي: (قدمناه علىٰ غيره لأنه شعر والباقي من الرجز)

فبتنا جلوسا لدىٰ مهرنا ننزع من شفتيه الصُّفارا

وفيه استعمل الشاعر الشفة للفرس، وهي للإنسان بدلا من الجحفلةالمخصصة للفرس.

وهذا البيت من قصيدة لأبي دؤاد الإيادي يصف فيها فرسه وهو يعده للخروج للصيد، فلننظر ما يقول(١):

ودارٍ يقول لها الرَّائدو نَ ويلُ امِّ دار الحُذاقيِّ دارا
فلمّا وضعنا بها بيتَنا نتَجْنا حُوارا وصِدنا حِمارا
وبات الظَّليمُ مكانَ المِجَنِّ تَسْمَعُ بالليل منه عِرارا
وراح علينا رِعاءٌ لنا فقالوا : رأينا بِهَجْلٍ صُوارا
فبِتْنا عُراةٍ لَدَىٰ مُهرِنا نُنِزِّعُ من شفتيه الصُّفارا
وبتنا نُغَرِّثُه باللِّجام نُريدُ به قَنَصًا أو غِوارا
فلمَّا أضاءت لنا سُدفَةٌ ولاح من الصُّبْحِ خَيْطٌ أنارا
غَدَوْنا به كسِوار الهَلو كِ مُضْطَمِراً حالِباه اضْطِمارا
مَروُحَاً يُجاذِبُنا في القياد تَخَالُ من القَوْدِ فيه اِقْورارا
ضَروحَ الحَمَاتين سَامي التَّليلِ وَثُوبا إذا ما انْتَحَاهُ الخَبَارا
فلمَّا علا مَتْنَتَيه الغُلامُ وسَكَّن مِن آلِهِ أن يُطَارا
وسُرِّحَ كالأجدَلِ الفارِسِ يِّ في إِثْرِ سِرْبٍ أَجَدَّ النِّفارا

(١) الأصمعيات : ١٩٠.

فَصَـــادَ لنـــا أكْحـــلَ المُقْلَتَـــ ـــيْنِ فَحْـــلا وأخـــرىٰ مَهـــاةً نَـــوَارا
وعـــادىٰ ثَلاثَـــا فخَـــرَّ السِّـــنا نُ إمَّـــا نُصُـــولا وإمَّـــا انكســـارا
أَكُـــلَّ امْـــرِئٍ تَحْسَـــبِين امْـــرأً ونـــارٍ تَوَقَّـــدُ بالليـــل نـــارا

إن الشاعر هنا ليصف فرسه الذي يعوِّل عليه هو وأصحابه في صيدهم ، ويريد في الأبيات أن يبين أنه – أي الفرس– أهل لهذه المهمة التي انتدبته لها الجماعة، وأنه قام بها خير قيام، وهم يعلمون منه ذلك؛ فيوجهون له عناية خاصة يفردونه بها دون الأهل والولد، كما ورد، فبمجرد أن سمعوا من الرعاة بوجود قطيع من البقر باتوا يعدون عدتهم للصيد؛ فكانت العناية بهذا الجواد أكبر همهم ، فجاء وصف الشاعر لهذا الإعداد مصحوبا بهذا الوصف للفرس، فهم قد "باتوا" "عراة" أو جلوسا عند "مهرهم" ينزعون من "شفتيه" الشوك وما إليه مما يعلق بهما من رعي الكلأ فيؤذيه ، فكل لفظة في هذا البيت تدل علىٰ مدىٰ عنايتهم به وتدليلهم إياه، فجاءت لفظة "شفتيه" هنا في موضعها الذي لم ير فيه الإمام فائدة بل قال "فهذا ونحوه لا يفيدك شيئا، لو لزمت الأصل، لم يحصل لك، فلا فرق من جهة المعنىٰ بين قوله: من شفتيه، وقوله: من جحفلتيه، لو قاله، إنما يعطيك كلا الاسمين العضو المعلوم فحسب، بل الاستعارة هنا بأن تنقصك جزءا من الفائدة أشبه ..... إلخ"[1]، ولعمري إن الفائدة بالتحول من الجحفلة إلىٰ الشفة لهي ألصق بالبلاغة التي تعلمناها علىٰ عبد القاهر أضعافا مضاعفة، وهو القائل: "لابد لكل كلام تستحسنه ولفظ تستجيده من أن يكون لاستحسانك ذلك جهة معلومة وعلة معقولة وأن يكون لنا إلىٰ العبارة عن ذاك سبيل، وعلىٰ صحة ما ادعيناه من ذلك دليل(٢)، وتطبيقا

(١) الأسرار، ص: ٣٢.
(٢) الدلائل، ص: ٤١.

لكلامه هذا نجد أن الشاعر لو ذكر الجحفلة لما زاد عن وصف فرس عاديٍّ ولدعا سامعه إلىٰ التشكك في جدوىٰ مبيته "عاريا" أي مشمرا أو جالسا مؤَرَّقا متعبا مجهدا، في ماذا ؟، في نزع الشوك، هو ومن معه، عن جحفلة هذا الفرس!، وليس علىٰ سبيل المزاح أن أتصور حماراً يصل إلىٰ مسامعه أن البشر يسمون أنفه "الجحفلة" فلا يكاد يصدق ذلك، وعندما يتأكد له صحة الخبر يقول مبتئسا: أبعد كل وفائي وإخلاصي وخدماتي وصبري وتحملي يسمون أنفي بهذا الاسم الرديّ !؟، وربما حدثته نفسه المكتئبة أن يهم بالانتحار!، هذا عن الحمار، فما بالك بالفرس في شموخه وزهوه بنفسه وخيلائه وعزته!.

الذي يدلنا عليه السياق أن الشاعر يزهو بفرسه أيما زهو، ويعتز به ويفتخر به أيما افتخار ويتيه به عجبا وإعجابا أمام تلك المرأة التي يخاطبها في ختام قصيدته، وليس تدليله بوصفه بـ"المهر" وخلعه وصف "الشفة" في رقتها وجمالها بطريق الاستعارة هو كل شيء، ولا حرصه علىٰ إعداده وتضميره هو كل ما يعزز إفادة هذه الاستعارة، بل كل القصيدة يشهد بذلك، ولعلنا إذا استحضرنا فكرة أن الفرس هو الشاعر نفسه من حيث هو معادل له(١) بدليل البيت الأخير الذي انتقل فيه من وصف الفرس الصياد إلىٰ قوله مزدهيا مفتخرا وهو يخاطب هذه المرأة:

أَكُلَّ امْرِئٍ تَحْسَبِين امْرَأً ونَارٍ تَوَقَّدُ بالليل نارا

ولعله أيضا قصد إلىٰ استعارة الشفة للفرس بأن يخلع عليه صفةإنسانية للإلماح إلىٰ ما بين الفرس وصاحبه من صلة وثيقة غير مستغربة في عالم الشعر العربي قديما ولا في البيئة التي يستمد منها الشاعر مادة إبداعه ولا بين قوم كانوا يجيعون أولادهم ليُشبعوا جيادهم، فأية غرابة في أن يستعير الشفة للفرس اعتزازا به وتدليلا ومدحا!،

(١) المعادل الموضوعي، ص: ٦٠ ، ١٣٦ وما بعدهما.

وأية غرابة في أن يسهر علىٰ رعايته هو ومن معه!، ولا شك في أنه قد جربه من قبل وعرف له حسن بلائه وما ينتظر منه غدا وما بعد غد من خير ومنفعة، وأراد أن يظهر له المودة والعرفان وينقل كل مشاعره إلىٰ شداة شعره فشبه "مهره" هذا بإنسان وأخذ من هذا الإنسان عضوا محددا هو الشفة لمناسبتها للعناية بنزع الشوك عن الجحفلة وجعلها وسيلته الدالة علىٰ علاقة المشابهة التي هي شرط في الاستعارة كما هو معلوم، ولولا ذلك ما فهم المعنىٰ الخفي من وراء هذا النقل بالإضافة إلىٰ العديد من القرائن الدالة علىٰ ذلك، وأوفاها تلك الغنيمة التي أصابها غلامهم مع هذا الفرس، أوَلا يستحق فرس أتىٰ بمثل هذا الصيد أن يُكرَم بشفة تُنزله منزلة أعز الأهل والولد؟!، ولا يغيبن عنا ما كان يعبر به الشعراء من شعور بالحيوان وتفاعل معه وعرفان له ، الأمر الذي يضيف بعدا جديدا بلغ الغاية في العمق والتأثير لدىٰ السامع الذي يتصور مدىٰ فداحة الشعور بالألم الذي يسببه وخز الشوك في شفة الإنسان في رقتها، وهو ما أحسب أن ذلك السامع سيضع دون وعي منه يده علىٰ شفته فَرَقًا من الشعور بالألم الذي يسقطه عليه وضع الشفة مكان الجحفلة من الفرس.

وليس هذا غريبا عن الحياة العربية عامة ولا الشعر والشعراء خاصة وقد اطرد ذكر الخيل والعناية بها في شعرهم، وليس ببعيد منا نموذج فرس امرئ القيس في معلقته ولا غيره من النماذج، ولعل أقربها إلىٰ قصيدة أبي دؤاد أبيات للأعشىٰ في لاميته في الأسود بن المنذر حيث يقول(١):

ولقد أغتدي إذا صقع الديـ ـك بمهر مشذب جوال

(١) جمهرة أشعار العرب، ص: ١٢٦-١٢٨.

أعـــوجي تنميـــه عـــوذ صـــفايا ... ومـــع العـــوذ قلـــة الإغفـــال
مـدمج سـابغ الضـلوع طويـل الشـ ... ـخص عبـل الشـوىٰ ممـر الأعـالي
وقيـــامي عليـــه غيـــر مضـــيع ... قائمـــا بالغـــدو والآصـــال
فجـلا الصـون والمضـامير عـن سيـ ... ـد جـرىٰ بـين صفصـف ورمـال
يمـــلأ العـــين عاديـــا ومقـــودا ... ومعـــرَّىٰ وصـــافنا في الجـــلال
فعـــدونا بمهرنـــا إذ غـــدونا ... قارنيـــه ببـــازل ذيـــال

فكان من نتيجة هذا الإعداد وهذه العناية والرعاية ما عاد عليهم بالصيد الوفير:

فحملنـــا غلامنـــا ثـــم قلنـــا ... هـاجر الصـوت غيـر أمـر احتيـال
فجـــرىٰ بـــالغلام شِـــبْهَ حريـــق ... في يبـــيس تـــذروه ريـــح الشـــمال
بـــين عيـــر وملمـــع ونحـــوص ... ونعـــام يـــردن حـــول الرئـــال
لـم يكـن غيـر لمحـة الطـرف حتـىٰ ... كـــبَّ تســـعا يعتامهـــا كالمغـــالي
وظليمـــين ثـــم أيَّهـــت بالمهـــ ... ـــر أنـــادي فـــداك عمـــي وخـــالي

أليس هذا الجواد ومثله خليقا بكل تلك العناية والرعاية ! بلىٰ وزيادة، فهذا من هذا، وما فرس أبي دؤاد بأقل شأنا من فرس الأعشىٰ وأفراس امرئ القيس وعنترة وعمرو بن معديكرب وغيرهم من الفرسان والشعراء في ذلك الزمن الجميل؛ فما بالنا نستكثر عليه أن نسهر عليه ننزع عن "شفتيه" القذىٰ والأذىٰ!

وعلىٰ تفسيرنا هذا تستقيم بلاغة الاستعارة مع ما ذكره الإمام من أن الحكم في الاستعارة هو أنها وإن كانت من صفة اللفظ في ظاهر المعاملة، فإن مآل الأمر إلىٰ أن القصد بها إلىٰ المعنىٰ، حيث إن بلاغة المجاز هي من جهة المعنىٰ لا اللفظ، وإن كان النقل للفظ(١).

(١) دلائل الإعجاز ٢٨١.

وعلىٰ تحليل هذا البيت "فبتنا جلوسا..." وما توصلنا إليه من ورائه علّق الزميل محمود توفيق قائلاً "فعبد القاهر في هذا البيت أُتي من قبل أنه لم يلحظ معنىٰ الأنس – يعني "عراة" أو "جلوسا" – الذي رمىٰ إليه الشاعر والعناية التي قصد إليها، وذلك ما أُكرمتَ بملاحظته فكان نظرك في هذا البيت نافذا".

(٣)

أما الشاهد الثاني الذي جاء به الإمام فهو قول العجاج :

وفاحما ومرسنا مسرجا

وهو من أرجوزة جيمية طويلة عجيبة مشحونة بالغريب ، كعادة الرجاز مطلعها:

ما هاج أحزانا وشجواً قد شجا من طلل كالأتحمي أنهجا[1]

يفتخر فيها بقومه[2]، وكان بدأها بذكر الأطلال التي رحلت عنها المحبوبة فوصف رسومها وما سكنها من الوحش من نعام وأبقار وما حل بها من مطر عفَّىٰ آثارها التي تذكره محبوبته ليلىٰ (١ : ٢٢)، متخلصا إلىٰ ذكر المحبوبة الغائبة ورحلتها ومنازلها التي نزلت بها في رحلتها الطويلة التي لم تُنسه ذكراها (٢٢ : ٣٥)، ومنه إلىٰ وصف المحبوبة (٣٦ : ٤٨) وصفًا بديعًا علىٰ النحو الذي سنتوقف عنده فيما بعد، وعرج بعد ذلك علىٰ ذكر زمان الصبا، وفعل العذال في التفريق بينه وبين محبوبته (٤٩ : ٥٧)، وتخلص منه إلىٰ الرحلة والبادية والليل والناقة، ومنها إلىٰ الأتان مشبها واستطرد في ذكر قصتها مع ذَكَرِها (٥٨ : ١٠٠)، وانتقل مُعرضا عن ذلك إلىٰ الفخر في نحو خمسين بيتا إلىٰ نهاية الأرجوزة (١٠١ : ١٤٧) حيث فخر بقومه وبلائهم في الحروب ذاكراً الخيل والفرسان وما صنعوا في يوم الكُلاب الثاني من فتك بالملوك والأبطال، وختم بالتبجح بأن قومه هم السادة والرءوس الذين يعجز غيرهم عن بلوغ ما بلغوا حيث بلغوا السماء رفعة ومجداً!.

---

(١) ديوان العجاج :٢٧١ : ٣٠٣.

(٢) يضطرنا طول القصائد إلىٰ الاجتزاء منها بالمقطع الذي فيه الشاهد مع وصف موقعه من بنية القصيدة ، توسطا بين تركها وما فيه من إغفال للسياق العام الذي لا يُستغنىٰ عنه ، وإيرادها كاملة لما فيه من إثقال علىٰ مقال بهذا الحجم.

وقد جاء الشاهد منها في المقطع الذي يصف فيه محبوبته - وقد تذكرها - بأجمل وصف حيث يقول:

فإن تَصِرْ ليلىٰ بسلمَىٰ أو أجا ... أو باللِّوىٰ أو ذي حُسىً أو يأْجَجا
فَتُحْمِلِ الأرْواحَ حاجًا مُحْنَجا ... إليَّ أعْرِفْ وَحْيَهَا الْمُلَجْلَجا
أَزْمَانَ أبْدَتْ واضِحًا مُفَلَّجا ... أَغَرَّ بَرَّاقًا وطَرْفًا أَبْرَجا
ومُقْلَةً وحاجِبًا مُزَجَّجا ... ومَرْسِنًا مُسَرَّجا
وبَطْنَ أَيْمٍ وقَوَامًا عُسْلُجا ... وكَفَلاً وَعْثًا إذا تَرَجْرَجا
أمَرَّ منها قَصَبا خَدَلَّجا ... لا قَفِراً عَشًّا ولا مُهَبَّجا
مَيَّاحَةً تَمِيحُ مَشْيًا رَهْوَجا ... تَدَافُعَ السَّيْلِ إذا تَعَمَّجا
غَرَّاءُ سَوَّىٰ خَلْقَها الخَبَرْنَجا ... مَأْدُ الشَّبابِ عَيْشَها الْمُخَرْفَجا

فهذا المقطع من الأرجوزة يصف فيه العجاج هذه المحبوبة التي تذكرها لدىٰ وقوفه علىٰ الأطلال، فبدأ بذكر غيابها عن هذه الأطلال ورحلتها التي أبعدت فيها، وحلولها ببلاد بعيدة تتنقل بينها مع أهلها وهو يتسقط أخبارها تواقا لعودتها إلىٰ مرابعها الخالية التي أخصبت ودعت أصحابها للرجوع علىٰ المعتاد في تلك المواسم، ولكن هيهات فقد عاد ولم يجدها، فصار يتمنىٰ أن تحمل له الرياح رائحتها ليستروحها في نسائمها مع عبير الذكريات التي تحيي ذكراها فيتصورها قائمة قبالة ناظريه بطلعتها البهية التي يأخذ في وصفها بدقة متناهية وكأنه يراها رأي العين، فلم يدع شيئا من مفاتنها إلا وصفه مشبها إياه بأجمل ما يصف البدوي من المرأة بحسب المقاييس التي كانت للجمال في بيئته، فأول ما يطالعه منها الابتسامة التي يفترُّ عنها ثغرها مبديا أسنانا براقة مُفلَّجة، وهي ترميه بنظرة ساحرة من عينين واسعتين يعلوهما حاجبان منتظمان، ويتوسط وجهها أنف كأحسن ما تكون

الأنوف، ويكلل كلَ ذلك شعر فاحم، فإذا ما انتقل بنظره إلىٰ قوامها فإنه يرىٰ قواما ميادا مياسا مستوي الخلق ضامراً حيث الخصر، ممتلئًا رجراجًا حيث الأرداف، وليس في عظامها شيء قليل اللحم ولا كثيره فلا يجاوز حد الاستواء إلىٰ هذا ولا ذاك، مع بشرة بيضاء ناعمة تضج بِرِيِّ الصِّبا والأنوثة الطاغية والحياة المنعمة.

إن طبيعة الحياة البدوية قد صبغت هذه الأرجوزة بغريب الألفاظ وبعض الصور المستقاة من هذه البيئة، ومنها تشبيه الأنف بالمرسن، ومعاصروه يعلمون أن هذا الشاعر ابن بيئته ينطق بلسانها ويعبر بما تجود به، ومن ثم يتأكد لدىٰ متناول هذا الشعر بالتحليل والنقد أن صورة كصورة المرسن فيها قدر من الجمال دعاه لاستعارتها؛ حيث هو في أصل الوضع اللغوي الأنف من الفرس وما أشبهه من الدواب التي يوضع الرسن في أنوفها، والرسن هو الحبْل الذي تقاد به الدابة، والمرسن الموضع من الأنف الذي يشد به الرسن أو هو الأنف كله، فعلىٰ الأصل يكون المرسن هو أنف الدابة التي تربط بالرسن، وأكثر ما يطلق علىٰ أنف الفرس، فإذا ما أطلق علىٰ الإنسان كان مجازا بنص كلام الزمخشري في: أساس البلاغة (رسن)، وغيره قال إنه شاع حتىٰ صار كل أنف مرسنًا(١)، ولعل ذلك الشيوع لم يزحزح الأصل بحيث بقي الأصل يستعمل مجازاً في مواضع من الشعر نحو قول عمر بن لجأ(٢):

فلم تر مني غير أشعث شاحب ... مضمن أحساب أناخ فأنشدا
ولم أر منها غير مقعد ساعة ... به اختلبت قلبي فيالك مقعدا
وسنت عليه مجسدا فوق يمنة ... عتاق ولاثت فوق ذلك مجسدا

(١) الصحاح: رسن.
(٢) منتهىٰ الطلب ١/ ٣٣٥.

علىٰ مرسن منها أغر كأنه سنا البرق لاقىٰ ليلة البدر أسعدا

ولولا ذلك ما نص الزمخشري عليه في مجاز المرسن مستشهداً ببيت العجاج الذي معنا، أي أننا هنا بإزاء نص صريح علىٰ أن العجاج قد استعمله علىٰ المجاز مستعيرا إياه من الفرس في موضع يصف فيه قسمات الجمال من محبوبته، ولا يجوز أن يحمل علىٰ أنه يسترذل ذلك منها بالنظر إلىٰ السياق، بل العكس، بمعنىٰ أنه إنما استعار لها وصفا جميلا من الفرس ونحوه ، ومثله وصف المرأة بأنها خنساء، والخنساء في الأصل المهاة الوحشية والظبية التي توصف بخنوس أنفها، وهم يرون الفرس من أجمل الكائنات، ويُكِنّون له إعزازاً ما عليه مزيد، كما سبق ذكره، وكانوا يشبهون المرأة الكريمة بالفرس وبالمهرة، ومنه قول هند بنت النعمان بن بشير:

وما هند إلا مهرة عربية سليلة أفراس تجللها بغل

فلا شك أن العجاج لم يقصد إلىٰ مطلق تشبيه الأنف بأنف الفرس، وإنما رمىٰ إلىٰ سمت أنف الفرس في محله من الفرس في شموخه واستوائه ولمعانه ودلالته علىٰ العتق والأصالة، فاستعاره للمحبوبة بكل هذه الاعتبارات لا باعتبار شكل الأنف، ولهذا جعله مسرجا أي لامعا كضوء السراج بالغا غاية الحسن علىٰ سبيل الاحتراز.

وفيما أبداه الدكتور محمود توفيق من ملاحظ علىٰ هذه المقالة علق علىٰ هذه الصورة قائلا: "الذي يبدو لي أن الشاعر عبّر بالمرسن عن أنفها لما بين أنفها وأنف الفرس وغيره من مشابهة ليست في شكل الأنف وإلا كان قبيحا بل مشابهة في أنها واضعة في أنفها من الحلي مثل ما يوضع في أنف الفرس من زمام، وما يزال البدو يفعلون، وما يزال في قريتي كذلك، فأنفها مرسّن أي فيه من الحلي مثل ما في أنف

الفرس من رسن، ولذلك قال مسرجا أي يبرق كالسراج ولا يكون كذلك إذا كان الأنف أفطس" أ.هـ[١].

وهذا الذي علق به له وجه مقبول لما يصحب هذا التعبير من أوصاف جمالية أخرىٰ كقوله "وحاجبا مزججا" فالحاجب المزجج المستوي الأطراف في تناسب مع "المقلة" السابق الإشارة إليها، من أجمل ما توصف به الوجوه لاسيما إذا كان طبعيا غير مصنوع، ولولا ما يدل عليه السياق من صفات هذه المرأة ومفاتنها ما عرف وجه الفائدة من مثل هذه الاستعارات والتشبيهات، وعليه فلا فائدة تعود علىٰ التحليل الفني لنص إن قام المحلل بقطع الصور والتعبيرات من سياقاتها علىٰ النهج الذي كان يقوم به المتقدمون ، بل هو مدعاة للخطأ في التأويل علىٰ الأرجح، وعليه يتبين أن درس البناء الفني للنص من ألزم لوازم علم البلاغة[٢]، وفيه إثبات ما يدل علىٰ جدوىٰ هذه الاستعارة كسابقتها.

(١) من تعليقاته علىٰ النسخة المخطوطة لديّ.

(٢) ينظر: التحدي المنتظر للبلاغيين العرب، علم البناء الفني للنص الأدبي.

(٤)

وفي أرجوزة أبي النجم العجلي التي أنشدها هشامَا بنَ عبد الملك شاهدان من شواهد الإمام علىٰ الاستعارة غير المفيدة[١]، جديران بردهما إلىٰ موضعهما من هذه القصيدة لننظر في حقيقة هذا الرأي.

و تلك الأرجوزة اللامية المشهورة ألقاها أبو النجم بين يدي هذا الخليفة في بلاطه، وكان قد أمر الشعراء بوصف الإبل وإيرادها وإصدارها كأنه ينظر إليها فأنشدوه، وأنشده أبو النجم إياها، وهي حافلة بالغريب، قالها في وصف الإبل وراعيها والبيئة البدوية القاسية الجافية مركزاً علىٰ وصف صورة الإبل التي بدونها لا تسوغ الحياة في تلك البيئة فجاء وصفا بالغ الإبداع والغرابة، وجعل لها إطارا قصصيا طريفا، وقد شهد رؤبة بأنها أتم أرجوزة للعرب، والقتَبي بأنها أجود أرجوزة للعرب، ولا شك أن بدويا كأبي النجم سيجتهد كل الاجتهاد في تصوير مدىٰ أهمية الناقة، وحرصهم عليها، وبيان عنايتهم بها ومعرفتهم بأوصافها وأعضائها وأنواعها وأنسابها، وعاداتها وأمراضها وجميع شئونها.

وقد أغرب أبو النجم في اللغة، كعادة الرجاز، كما أغرب في الوصف واستعمل كل وسائل التصوير التي هدته إليها موهبته وواءمت طبعه، بلا تصنع أو تكلف، مما أوقعه في مصيبة بعد إلقاء القصيدة!.

(أ) والقصيدة "الأرجوزة" مبنية بحيث تقدم صورة متكاملة لحياة الإبل في البيئة البدوية، وتتركب هذه الصورة من مشاهد لتلك الحياة، متعاقبة في شبه قصة لها مبدأ ومنتهىٰ وأحداث متوالية حرص الشاعر علىٰ أن يجعلها قمة في التعبير والإثارة،

(١) أوهم أسلوب الإمام أنهما لشاعرين مع أنهما للشاعر ومن قصيدة واحدة كما قدمنا.

حيث استهلها بحمد الله علىٰ نعمائه وعطائه من الإبل التي رعت الربيع في منعة بني مالك وبني هشل وعزتهما، ثم أخذ في وصف المرعىٰ الممرع، وفي وصف الإبل التي اطمأنت به ورعت وحملت وأطفلت، ولم تعرف القيد، ولا ذَكَرُها عرفه، بل رعت حرة وعاشت عيش السعداء، وجعل يصفها وصفا مسهبا ويصف فحلها كذلك، حتىٰ جاء أوان الحر والتهجير ولفحت الريح الحارة الصحراء وظهرت الحيات والآفات التي تجيء مع الحرِّ، واعتزل الفحل النوق، وهجم العطش، فكان لا بد من التحول سعيا للماء والمرعىٰ، فساقها الراعي - الذي لم يفته وصفه هيئة وحنكة في سوقها وتذليلها- سوقا حثيثا في الصحراء الحارة وهي عطاش حتىٰ أوردها الماء الذي اجتمعت علي حوضه - والذي لم يفته وصفه أيضا- كأنها الجبال ارتفاعا وضخامة؛ طويلة أرجلها، عالية أسنامها، ضامرة بطونها لشدة الحر والعطش، فهجمت علىٰ الماء لا ترعوي لزجر الراعي ولا تأبه لعصاه، ولا تأبه لصغار بعضها التي لا تجد لها أُمًّا تدفع عنها الأذىٰ، وازدحمت النوق علىٰ الحوض لا يحلحلها عنه دافع ولو كان فيلا، وشرعت في النهل منه مدنية أعناقا كأنها الجداول بحلاقيم كأنها المراجل سعة، وغلاصمها تتحرك حركة شديدة مع رشفها الماء كأنها تقفز في أعناقها - كل ذلك تدليلا منه علىٰ شدة عطشها وإقبالها علىٰ الماء- فتسمع لمصها الماء صوتا كصوت حمار الوحش في نهيقه العالي يصدر من بين عروق رقابها وشفاهها، وها هو ذا المقطع الذي ورد فيه الشاهد الأول[1]:

٨٩- حتىٰ إذا الشَّمسُ بدت للقُيَّلِ ... بالنِصفِ مِن حيث غدت والْمَنزِلِ

٩١- جاءت تَسامَىٰ في الرعيل الأوَّل ... والظِّلُ عن أخفافها لم يَفْضُل

(١) الطرائف الأدبية، ص: ٥٥ ـ ٧٥.

٩٣- مـائرةَ الأيـدي طِـوالَ الأرجُـل يَهـدِي بهـا كـلُّ نِيـاف عَنْـدَل
٩٥- طاويـةً جنْبَـيْ فُـراعٍ عَثْجَـل يُخـبِّطُ الذَّائـدَ إنْ لـم يَزْحَـل
٩٧- تَغْشَىٰ العصا والزَّجْرَ إنْ قال حَلِ يُرسـلهُا التَّغْمـيضُ إنْ لـم تُرْسَـل
٩٩- خوْصاءَ تَرْمِي باليتيم الْمُحْتَل إذا دنـت مـن عَضَـدٍ لـم يُشْـغَل
١٠١- عنها ولـو كـان بِضَـيْقٍ مَـأْزِل أو كـان دَفْـعَ الفيـلِ لـم تَحَلْحَـل
١٠٣- تُدْني من الجَدْوَل مِثْلَ الجَدْوَل أجـوفَ في غَلْصَـمةٍ كالمِرْجَـل
١٠٥- تَنْـزو بِعُثْنـونٍ كظَهْـر الفُرْعُـل تسـمع للمـاء كصَـوْتِ المِسْـحَل
١٠٧ بـين وَرِيـدَيْها وبـين الجَحْفَـل تُلْقيـه في طُـرْقٍ أتتْهـا مِـن عَـل
١٠٩ قُـذْفٍ لها جُـوفٍ وشِـدْقٍ أهْـدَل كـأن صـوتَ جَرْعِهـا المُسـتعجَل

فالشاعر هنا يصف الإبل وصف محب لأعز ما يعتز به في بيئته وثروته، فلما أراد أن يصف شربها استعار الجحفلة لمشفرها كما وصف عبد القاهر، الذي هون من شأنها وعدها استعارة غير مفيدة ، وتابعه الشارح المجهول في هذا التهوين قائلا: "واستعار الجحافل فجعلها للإبل ضرورة للشعر إذ لم يمكنه أن يقول مشفرها" أي أنه لجأ إلىٰ الجحفل لأجل القافية، ولكن التأمل في سياق النص وملابساته يكشف جلية الأمر علىٰ غير هذا وذاك؛ حيث إن الشاعر لما كان يريد أن يظهر مدىٰ اعتزاز الراعي وكل أحد من العرب بالإبل وهي عنوان البداوة وهي رأس مالهم حتىٰ إنهم كانوا يصفونها بأنها "المال"، وهو بين يدي الخليفة الذي يعد الخيل هي المال وعنوان العزة والقوة؛ رأىٰ من المناسب لهذا المقام أن يبين أن الإبل عندهم تعدل الخيل عند الخليفة ومن حوله من أهل الوجاهة والنباهة والثراء، وذلك باستعارة شيء من الخيل للإبل تنبيها علىٰ ذلك وتوجيها، وما أراد بها إلا تشبيه الإبل بالخيل علىٰ وجه العموم، وبهذا تكتسب هذه الاستعارة وجها وجيها للنفع والجمال شأنها

في ذلك شأن كل الاستعارات والتشبيهات، وفيه قال ابن دريد "كأنه يُحسِّنه ، فجعل للإبل جحافل، وإنما الجحافل لذوات الحافر"(١).

وأحسب أن فيما ذكرت من الوصف ما يغني عن تكرار البيان.

(ب) **أما الشاهد الثاني** الذي ساقه الإمام من القصيدة ذاتها فيقع قريبًا من خاتمة القصيدة ، وهي خاتمة بلغت ذروة الإبداع ، حيث إن الشاعر مضىٰ في وصف سقيها وكيفية نهلها ووصف الحوض الذي يرتد إلىٰ عهد عاد (لضخامته نظرا لأنهم كانوا عمالقة) وكيفية استخراج الماء بالدلاء التي تنزعها الجمال السواني من البئر بحبال شديدة الفتل، معرجًا علىٰ وصف الجمال وضخامتها وأعضائها، ثم لم يبق إلا أن يصفها وهي صادرة مع غروب الشمس للرواح والمبيت تتميما للصورة التي طلب الخليفة "من وصفها وهي واردة وصادرة كأنه ينظر إليها"، فأخذ في وصف ذلك المشهد المهيب بكل أجزائه ومفرداته وعناصره وكأنه يلون لوحة يرسمها بكل دقة وعناية، بادئا بالشمس الآخذة نحو مغربها وصورتها في الأفق الملون بألوان الشفق وهي مائلة كعين الأحول، منتقلا إلىٰ ساحة المشهد (الذي يماثل ما كان يحدث عصر كل يوم في ريفنا والماشية عائدة في موكب مشهود من مراعيها إلىٰ زرائبها للمبيت) ذلك المشهد الذي جعله مهرجانا يشهده العامة الذين خرجوا لتلقيها بظاهر الحي وقت الغروب مصطفين صفين تمر بينهما القافلة التي يقودها الراعي، الذي لم يغفل وصفه وصفا "دراميا" مؤثراً مثيراً للشفقة والعجب ، وهو يحرك عصاه الصلبة يوجه بها الإبل نحو غايتها مجتهداً، وقد انسدلت لمته الشعثاء بيانا لسوء حاله لطول مكثه في البادية، وهو يحاول أن يفسر حاله لشهود الموكب

(١) الجمهرة : ١٣١٢، وقد أورد ابن دريد العديد من الشواهد في هذا الباب ، منها ما تحققت فيه الفائدة مما قصد به المدح وما قصد به الذم، ولا يبعد أن يكون منها ما أخذه عبد القاهر.

المتعجبين من هيئته، وبعده عن حال القرويين من النظافة وحسن المظهر، فهو لم يعرف التغزل بالنساء الذي يدعو الإنسان للعناية بمظهره، بل إنه يُنطقه بما يدل علىٰ أبعد من ذلك؛ دون أن يسأله سائل؛ فيقسم أنه لم يذق طعاما قرويا في عامه المنصرم، وجعل نساء الحي يتعجبن لمرآه، وهو يبادلهن ذلك بالنفور منهن كما ينفر الصقر من الدخلاء علىٰ حماه، ثم يعود الشاعر إلىٰ الإبل ليصف مشيها المتثاقل لكثرة ما شربت نهلاً وعلاً كأنها تحمل أثقالاً علىٰ ظهورها بينما تمشي صغارها تحت أرجلها كأنها حبات الحنظل تتدحرج علىٰ الأرض؛ فتكاد لجمال مرآها تخرج الظباء من كناسها! واستمر يصف موكبها هذا حتىٰ ختم به، وها هي ذي الأبيات الموصوفة:

١٦٣- حتىٰ إذا الشمس اجتلاها ... بين سِماطَيْ شَفَقٍ مُهَوِّل

١٦٥- فهْي علىٰ الأُفْق كعين الأحْوَل ... صَغْواءَ قد كادت ولَمَّا تَفعل

١٦٧- نشَّطها ذو لِمَّة لم تُغْسَل ... صُلْبُ العِصا جافٍ عن التغزُّل

١٦٩- مُختلِطُ المَفْرِق جَشْب ... إلا من القارص والمُمَحَّل

١٧١- يحلف بالله وإن لم يُسأل ... ما ذاق ثُفلا بعد عام أوَّل

١٧٣- يَمُرُّ بين الغانيات الجُهَّل ... كالصقر يجفو عن طِراد الدُّخَّل

١٧٥- فصَدرتْ بعد أصيل المُوصِل ... تمشي من الرِّدَّة مشيَ الحُفَّل

١٧٧- مشيَ الروايا بالمَزاد الأثقل ... يرفُلن بين الأدَم المُعَدَّل

١٧٩- والحَشْوُ من حَفَّانها كالحنظل ... تُثير صيفيَّ الظباء الغُفَّل

١٨١- عن كلِّ دَمَّاع الثرىٰ مُظلَّل ... أيمن القُرْنة ذاتِ الأهْجُل

١٨٣- مكانسَ العُفْر بوادٍ مُرْبِل ... قَفْرٍ كلون الحَجَل المُكلَّل

فهذا المشهد البديع البالغ التأثير بكل جوانبه التي ذُكرت قبلاً وُصفت فيه صورة صغار الإبل (والحشو من حفانها كالحنظل) علىٰ نحو شديد المناسبة والتلاؤم مع ذلك الحشد من الصور الرائعة التي حفل بها المشهد المصور بعناصره المتآزرة من طبعية وبشرية وحيوانية، وهي من أجمل الصور التي تقع في مخيلة من يدرك مشاهد هذه البيئة البدوية ويرىٰ ثمار الحنظل التي أدركت وجفت وتناثرت بألوانها الصفراء الفاقعة بعد جفاف سيقانها وانفصالها عنها وتناثرها علىٰ صفحة الرمال بفعل الرياح والسيول وهي مكورة تامة الاستدارة، وربما بقيت بعض الفروع متصلة بها بأوراقها فبدت كالذيول المشعرة أو المريشة (ريش النعام)، فأراد الشاعر أن يشبه بها صغار الإبل ، فوجد أن الصورة قد تكون بعيدة، أي لا يتحقق فيها شرط "مناسبة المستعار منه للمستعار له" و"المقاربة في التشبيه" كذلك ، في حين أن صغار النعام التي خرجت لتوها من بيضها هي بثمار الحنظل أشبه في هيئتها وجمالها ولونها، بل وحجمها أيضا ولاسيما إذا شوهدت من بعيد، وهي بلا شك أجمل من صغار الإبل، فلما أراد أن يصف جمال صغار الإبل (الحشو) استعار لها صغار النعام (الحفان) علىٰ سبيل الترقي، فقربت بذلك المسافة بينها وبين حبات الحنظل، فأجرىٰ التشبيه عند ذلك، علىٰ هذا النحو:

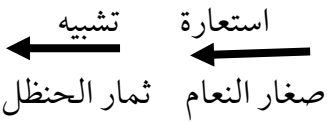

ولولا مرور الصورة بهذه الاستعارة ما أمكنه تشبيه صغار الإبل بثمار الحنظل؛ لبعد ما بين الصورتين، ولما تحققت المقاربة في التشبيه التي هي شرط في صحة التصوير ودقته إلا بعد مناسبة الاستعارة المقربة بين الصورتين.

ومما يؤكد تعمد الشاعر هذه الاستعارة المفيدة أنه في القصيدة ذاتها، ولكن في مقام آخر قام بتصوير صغار الإبل فاستعار لها لفظا آخر من هذا الضرب من الاستعارة ذاته، وهو مناسب للمقام الذي ورد فيه، وذلك في المقطع الذي أوردناه قبل هذا المقطع حيث قال:

٩٩- خوْصاءَ تَرْمِي باليتيم الْمُحْتَل

فوصف الفصيل باليتيم ، وهو في الأصل الذي فقد أباه من البشر (وإن كان بعض اللغويين قد أضاف إليه الحيوان والطير أيضا) فاستعار لفظ اليتيم ليصف به الفصيل المحثل (أي سيء التغذية بسبب قلة الرضاع أو عدمه) الذي لا أم له ترضعه وتغذوه وتدفع عنه في هذا المقام الذي تتدافع فيه الإبل نحو الماء غير آبهة به، بل ترميه، وهذا له دلالته علىٰ مدىٰ ما ألمَّ بهذه الإبل من العطش، ولو بالغ الشاعر في ذلك فجعلها ترمي بأولادها هي لخالف الواقع وبعُد من التصديق، ولفقد أيضا التأثير الذي جلبه لفظ "اليتيم المحثل"، وكذلك الحال أيضا في مقام استعراض الإبل القافلة نحو الحي وصغارها تحت أرجلها تثير الإعجاب والبهجة لدىٰ ناظرِها ومُستحضِرِ صورتها لدىٰ سماع هذا الوصف، وما كان الشاعر ليبلغ هذا القدر من الإثارة لدىٰ سامعيه إلا باستعارة صورة "الحفان"، وبهذا يثبت لدينا قصد الشاعر عن عمد إلىٰ استعارة كل لفظة في موضعها المناسب؛ بل المطلوبة لها مراعاةً لمقتضىٰ الحال ومقامات الكلام.

والأكثر من هذا وضوحا في الشعر قول الحطيئة في أبياته المشهورة التي استعطف بها الفاروق رضي الله عنه[1]:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زغب الحواصل لا ماء ولا شجر

(١) ديوان الحطيئة، تحقيق: نعمان محمد أمين طه، ص: ١٩١.

حيث لم يكتف باستعارة الأفراخ لأطفاله، بل استغرق الصورة ترشيحا بذكر الزغب والحواصل، ولا حواصل ولا زغب للأطفال، وبلغ من تأثير هذه الصورة في الخليفة الحازم إنه رق له وأطلقه واشترىٰ منه أعراض المسلمين، ويقال إنه بكىٰ لما سمع أبياته هذه، وليس يبعد أن يكون هذا الأثر مما ألقاه إبداع الشاعر وخياله علىٰ التصوير في هذه الأبيات التي تتصدرها صورة الأفراخ المستعارة للعيال الذين فقدوا عائلهم في تعبير بالغ الدلالة علىٰ الضعف والعجز عن الكسب، ومتفحص هذه الاستعارة يجدها واستعارة أبي النجم سواء، بل إن هذا الضرب من الاستعارة بلغ من الشيوع حد الابتذال علىٰ ألسنة الناس، فمنهم من يقول لصاحبه: كيف حال "الكتاكيت"، ومنهم من يقول: "الأشبال"، وثالث يقول: "البذور" ..... إلخ، وكلهم يعنون الأطفال علىٰ سبيل التدليل أو الإشارة إلىٰ الرقة كالأفراخ، أو التعبير عن شجاعة والد الأشبال أو تيمنا بالمستقبل المشرق كالنبات النامي وكلها من الاستعارات المفيدة، بل الأكثر فائدة مما لو قال في تعبير جاف مباشر: كيف حال الأنجال ؟

وفي شعر النابغة الذبياني من هذا الضرب من الاستعارة ما يوحي بأنها كانت من وجوه البيان التي دأب شعراء العرب علىٰ التوارد عليها من قديم ، يقول واصفا السبايا وأطفالهن[1]:

ويضربن بالأيدي وراء براغز حسان الوجوه كالظباء العواقد

والبراغز صغار البقر، استعارها لأطفال الأسيرات اللاتي وصفهن بالحسنوأولادهن كذلك، عبر عن جمال الأمهات اللآتي يحكين المها بأن أولادهن براغز، ولولا ذلك ما استعار لهم - أي الأولاد - هذا الاسم الذي جاء به عمدا

(١) الديوان ص١٣٩.

ليتوصل به إلىٰ تلك الصفة للأمهات، وبهذا كانت الاستعارة مفيدة علىٰ شرط الإمام، وقال النابغة أيضا يلوم قومه علىٰ عصيان أمره عندما حذرهم من وقعة مماثلة(١):

ضوارب بالأيدي وراء براغز   حسان كآرام الصريم الخواذل

وهي صورة شبيهة بسابقتها تشي بأن من أكابر الفحول من الشعراء من كانيميل إلىٰ إيراد مثل هذه التعبيرات والاستعارات في شعره، وهذا ملمح له دلالته الكاشفة عن القيمة الفنية لهذا الضرب من الاستعارات، وأنها ليست مما يقدم عليه فحول شعراء الجاهلية اعتباطا، بل إن استعارة الحفان والفراخ والبراغز لا تختلف عن استعارة المهاة والظبية والغزال والأسد من حيث النفع والجمال ولا تقل عنها فائدة.

ومن شعر الجاهليين أيضا وقع لنا نموذج لطرفة بن العبد فيه استعارتان في بيتين من قصيدة يتعرض فيها بالهجاء لعمرو بن هند وأخيه، لعلها كانت من دواعي هدر دمه، وهي قصيدة قصيرة يقول فيها(٢):

فليت لنا مكان الملك عمرو   رغوثا حول قبتنا تخور

من الزمرات أسبل قادماها   وضرتها مركنة درور

يشاركنا لها رخلان فيها   وتعلوها الكباش فما تنور

لعمرك إن قابوس بن هند   ليخلط ملكه نوك كثير

قسمت الدهر في زمن رخي   الحكم يخلط أو يجور

لنا يوم وللكروان يوم   تطير البائسات ولا نطير

---

(١) الديوان، ص: ١٤٣.

(٢) ديوان طرفة: ٣٨ ، مختار الشعر الجاهلي ١/ ٣٤٦.

فأمـــا يـــومهن فيـــوم نحـــس بالحــــدب الـ ـصقور
وأمـــا يومنـــا فنظـــل ركبـــا وقوفـــا مـــا نحـــل ومـــا نسـير

والطريـف هنـا أن طرفـة، وإن كـان يهجـو؛ فإنـه يمـدح هـذه النعجـة المرضـع "الرغوث" التي يتمنىٰ أن تكون لهم بديلا من هذا الملك، فيقـول إن هـذا الملـك لا نفع فيه ولا خير يرتجىٰ مـن ورائـه؛ فهـو شرير دمـوي يخـرج للقـنص يومـا فيطلـق صقوره للصيد والفتـك بـالطيور، ويمكـث يومـا والنـاس واقفـون ببابـه متحيـرين لا يدرون أيؤذن لهـم فينتظروا أم يحجبون فيرحلوا يأسا، وهذا ما دعاه لهجائه متمنيا أن يبدلهم الله خيرا منه نعجة تكفيهم بلبنها المدرار، ويصورها بهـذه الصورة العجيبـة؛ فيجعلهـا بقـرة تخـور ببـابهم، فاسـتعار صـوت البقـرة[1] ليـدل بـه علىٰ أنهـا كفيلـة بإمـدادهم مـن اللـبن بمـا يعـادل لـبن البقـرة الحلـوب ، ثـم هـي قليلـة الصـوف (مـن الزمـرات) كنـىٰ بـذلك عـن غـزارة لبنهـا أيضـا، وكـذلك طـال (أسـبل) (قادماهـا) اسـتعارهما مـن أخـلاف البقـرة ضـرتها أو ضـرعها لأن لهـا أربعـة أخـلاف: قـادمين وآخرين[2]، ويبالغ في تصويرها ببيان أنها علىٰ كل ذلك لها بنتان (رخلان) تشـاركان في لبنها، ويزيد في المبالغة بأنها مستعدة علىٰ الدوام للقاح والحمل والنتاج، فلا تصد الكباش عنها طلبا لذلك ،كل هذا ليبين أن شاة حلوبا مباركا فيهـا خيـر مـن المهجـو الذي لا خير فيه، وعلىٰ هذا يكشف لنا السياق جمالية وفائدة هاتين الاستعارتين بما لا مزيد عليه، تأكيـدا علىٰ أن الغـوص وراء المـراد بتتبـع السـياق كفيـل بـأن يهـدي المتلقي إلىٰ أبعاد قد تخفىٰ علىٰ القارئ العجل، أو علىٰ من يقتطع الصورة الجزئيـة من سياق القصيدة ومبناها، وكفىٰ.

---

(١) مختار الشعر الجاهلي١/ ٣٤٦.

(٢) لسان العرب : قدم.

ومن هذا القبيل استعارة صوت لصوت كما في استعارة الأسود بن يعفر نعيبَ الغراب للديك في قوله:

وقهـــوة صـــهباء باكرتهـــا بجهمـــةٍ والـــديك لـــم ينعـــب[1]

والأصل أنه للغراب، وسياق هذه القصيدة يظهر لنا العلة الداعية لهذا النقل وهذه الاستعارة ومدىٰ ما تحقق للقصيدة من فائدة في االمعنىٰ وجمال في التصوير، فالبيت من قصيدة يرثي فيها شبابه الذي ولىٰ، يقول في مطلعها[2]:

هـــل لشـــباب فـــات مـــن مطلـــب مـــا بكـــاء البـــائس الأشـــيب
إلا الأضـــاليل ومـــن لا يـــزل يـــوفي علـــىٰ مهلكـــه يعـ ـصب
بـــدلت شـــيبا قـــد عـــلا لمِّتـــي بعـــد شـــباب حســـن معجـــب
صـــاحبته ثمـــت فارقتـــه ليـــت شـــبابي ذاك لـــم يـــذهب

ويأخذ بعد ذلك في الحديث عن صبواته في شبابه ولهوه، وفتكه وفتوته، ويستهل هذا الحديث بقوله:

وقـــد أُراني والبلـــىٰ كاســـمه أنـــا لـــم أصـــلع ولـــم أحـــدب
ولـــم يعـــرني الشـــيب أثوابـــه أصـــبي عيـــون البـــيض كـــالربرب
كأنمـــا يـــومي حـــول إذا لـــم أشـــهد اللهـــو ولـــم ألعـــب
وقهـــوة صـــهباء باكرتهـــا بهجمـــة والـــديك لـــم ينعـــب

إنه في تذكره لهوه في زمن الشباب يصف مجالس أنسه ومعاقرته الخمر مفتخراً بتبكيره لمجلسها (الهجمة آخر الليل) قبل صياح الديكة الذي يؤذن بطلوع النهار وانقضاء اللهو، وهو مما لا يرحب به رواد هذه المجالس ويعدونه نذير شؤم وسببا

(١) لسان العرب : نعب.

(٢) ديوان الأسود بن يعفر :٢١.

لفرقة الأحباب والأصحاب، عبر عنه باستعارة النعيب من الغراب المشئوم للديك، وهو هنا يوافق معنىٰ بيت لبيد في معلقته حيث يقول:

باكرت حاجتها الدجاج بسحرة لأعل منها حين هب نيامها

وهذا كان فيما يبدو من مجالات الفخر في البيئة الجاهلية.

ومما يلحظ هنا أن هذه الاستعارة أفادت المعنىٰ من جهتين لا من جهة واحدة ، أولاهما بكاء شبابه الذي ولىٰ، والأخرىٰ هي ما وصفنا آنفا، وكلاهما يناسب الجو التشاؤمي الذي استدعىٰ الاستعارة .

وهناك لطيفة أخرىٰ صادفت هذا البيت، هي أنه أُقحِم علىٰ قصيدة طويلة للنابغة الجعدي يرثي فيها إخوته وأعلام قبيلته علىٰ الرغم من اختلاف البحر[1]، يقول في مطلعها[2]:

سما لك هم ولم تطرب وبت ببث ولم تنـ ـصب
وقالت سليمىٰ أرىٰ رأسه كناصية الفرس الأشهب
وذلك من وقعات المنون ففيئي إليك ولا تعجبي
أتين علىٰ إخوتي سبعة وعدن علىٰ ربعي الأقرب
وسادة رهطي حتىٰ بقي ت فردا كصيـ ـصية الأغضب

ثم ينعطف علىٰ حديث السلوىٰ وما ينسي الهموم:

ودسكرة صوت أبوابها كـ ـصوت المواتح بالجوأب
سبقت صياح فراريجها وصوت نواقيس لم تضرب
برنة ذي عتب شارف وصهباء كالمسك لم تقطب

(١) البيت من السريع والقصيدة من المتقارب.

(٢) ديوان النابغة الجعدي ٣١ : ٤٥.

(وقهـــــوة صـــــهباء باكرتهـــــا بجهمـــــةٍ والـــــديك لـــــم ينعـــــب)

ولعل من أقحمه في هذه القصيدة – سهوا كان ذلك منه أو عمدا – رأىٰ ذلك الموضع يستدعىٰ ذلك البيت، ولم يك يدري أنه يقدم لنا بخطئه هذا نموذجا جيدا للياقة المعاني والصور الجزئية لسياقات لم تكن منها، فالقصيدة كلها بمناسبتها وسياقاتها تؤكد لنا أن استعارة مثل أسماء الأصوات هذه ليست عبثا وإنما هي قمة الحرص علىٰ مطابقة واقع الحال ومقتضاه، سواء أكان ذلك عند المبدع أم عند من التبس عليه الأمر ودلف إلىٰ المعنىٰ مباشرة دون أن يلتفت إلىٰ اختلاف الوزن بين البيت والقصيدة[1].

ولعل مما يبرز في هذا الباب تعدد أسماء أصوات الكائنات الحية من حيوان وطير كالنعيب السالف ذكره والنعيق للبومة وقيل للغراب أيضا علىٰ خلاف بين اللغويين، قالوا النعيب أصوب وورد فيه النغيق بالغين، والنهيق للحمار، والصهيل للخيل ، والشحيج للبغل والصرصرة للنسر والصقر ....، وقال ابن منظور: واستعار بعضهم النعيق في الأرانب وأنشد:

(١) عرض الزميل أحمد هنداوي رحمه الله لهذه الاستعارة عرضا جيدا تناول جانبا من مزاياها وكشف عن فائدتها في ثنايا عرضه لاستعارة بعض الأصوات مكان بعض (رؤىٰ جديدة، ص ٣٠٣ : ٣٠٥)، ولم يلتفت إلىٰ أنها جاءت تبعية في الفعل، ولما تدبرت ذلك في ضوء نص الإمام علىٰ الاسم تبين لي أن الشاعر قصد في الأصل لاستعارة اسم الصوت بصرف النظر عن الصيغة التي استدعاها السياق، ورأيت أن أضيف إليه ما تعهدت به من الكشف عن فائدة هذا الضرب من الاستعارات في ضوء السياق المفضي إلىٰ كمال البناء الفني للقصيدة، مع بيان دلالة استعارة النعيب للديك وللمؤذن في ضوء ما عرف عن العرب القدماء من التشاؤم بنعيب الغراب ، حتىٰ ضُرِبت به الأمثال، ولعل صوت المؤذن يشبه به إذا كان قبيحا بالإضافة إلىٰ كونه مُؤْذِنًا بتفرق الأحباب ومجالس الأنس وما إلىٰ ذلك.

والسُّعسُّـــع الأطلـــس في حلقـــه عِكرِشـــةٌ تَنْئِـــقُ في اللِّهْـــزِم

أراد: تنعق[1]، وهذا البيت مفرد ولا يعرف قائله ، ومع ذلك يُفهم من سياقه أنالشاعر يصف ذئبا (الأطلس) قبض علىٰ أرنبة (عكرشة) بأنيابه فجعلت "تضغب" (الضغيب اسم صوتها) بصوت مرتفع مزعج من الألم الذي تعانيه، وطلبا لمغيث إن وجد، فعبر عن صوتها هذا بـ"النئيب" = لغة في النعيب – مستعيرا إياه لها للمبالغة في التعبير عن معاناتها، ويؤكد هذا المعنىٰ قوله "في حلقه"، مبالغة منه في وصف حالها ومعاناتها، لأنها ليست في حلقه وإنما هي بين فكيه وإلا ما سُمع لها صوت، وهو نظير قوله تعالىٰ﴿.. يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم .. ١٩﴾ [سورة البقرة:١٩].،ومن المعروف أن الأرانب لا يكاد يسمع لها صوت إلا في حال الخطر الداهم، أنا شخصيا لم أسمع صوته إلا يوم قطعنا ذنبه ونحن نحاول الإمساك به في طفولتنا، وعند ذبحه، وبهذا يتبين لنا مدىٰ فائدة هذه الاستعارة وتأثيرها في السامع.

(١) اللسان والمحكم وغيرهما : نعق.

(٥)

وهنا يتبين مرة أخرىٰ مدىٰ ما يعود علىٰ الصورة الجزئية من وضوح الدلالة إذا ما جرىٰ تحليلها في سياقها من البناء الفني للنص الأدبي، ومدىٰ ما يصيبها من سوء فهم وتقدير لما تحمله من مغزىٰ ومن جمال عند قطعها من السياق الذي وردت فيه، الأمر الذي يرشدنا مع نظائره إلىٰ وجوب توجيه العناية إلىٰ ذلك العلم الذي لم يكن بعض الأسلاف يقيمون له وزنا أو يعيرونه إلا القليل من العناية، وما أجدره بها في زمننا هذا، ومما يجدر ذكره في هذا المقام ما أشرت إليه فيما سبق من أن البلاغيين بعد الإمام لو عنوا بتطوير نظريته، ووعوا ما وراء إشاراته المتعددة إلىٰ بناء الكلام بعضه علىٰ بعض في تراتب منطقي محكم لتوصلوا إلىٰ هذا العلم الرابع المكمل لعلوم البلاغة[1]، ولعل من تلك الإشارات ما عناه الأستاذ محمود شاكر محقق كتابي الإمام فيما رواه عنه العلامة محمد أبو موسىٰ وهو يحدثه عن قصيدة الشماخ، قال الشيخ شاكر "لقد تنبهت إلىٰ شيء في هذه القصيدة لم يذكره أحد ممن كتبوا عنها؛ لأن همّي وسَدَمي كان ولا يزال هو البحث عن شيء في طيِّ كلام علمائنا لم يتكلموا به صراحة وإنما هو مضمر في كلامهم ؛ سواء أرادوه، أو لم يريدوه لأني علىٰ يقين من أهل العلم الصادقين منحهم الله سبحانه وتعالىٰ لقانة هي من وراء علمهم الذي استخرجوه، وهي إرهاص بعلم آخر لم يستخرجوه وما تلبث هذه اللقانة أو هذا الإرهاص أن يثير عقل من كان علىٰ طريقهم في الصدق والإخلاص، ثم تخرج هذه اللقانة أو هذه المعلومة اللَّدُنِّية المطوية في علمهم ثم تصير فكرة جديدة ثم يكون وراءها فكرة مطوية، وهكذا نجد كلام الراسخين في

(١) التحدي المنتظر : ٢٦.

العلوم كنوزا ومناجم يفتح بعضها الباب لبعض، وهذا عو سبيل نمو المعرفة، وازدهارها، وزهوها أيضا حين يتولد بعضها من بعض، ويفتح أولها الباب لثانيها ومن ورائها عقول لا تني وعزائم لا تنثني ، وهذا شيء وترديد الببغاوات شيء آخر ..."[1]، وما أكثر الإشارات التي ضمنها عبد القاهر أعماله الخالدة مما كان حريا بالعلماء بعده أن يعوه ولا يتوقفوا بالدرس البلاغي عند تلك الحدود الضيقة المحكومة بالمنطق، ولست في حل من إيراد بعض تلك الإشارات في دلائل الإعجاز إضافة إلىٰ ما نورده من أسرار البلاغة في مواضعها من المقالة ليتأكد لدينا أن الإمام عبد القاهر كان حريا بأن يتناول متابعوه عمله بنظرة أعمق مما وقفوا عنده من مراده.

فمن ذلك قوله تعليقا علىٰ قوله تعالىٰ ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤﴾ [سورة هود:٤٤]."وهل تشك إذا فكرت في قوله تعالىٰ(الآية) أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة الباهرة، إلا لأمر يرجع إلىٰ ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض، وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولىٰ بالثانية، والثالثة بالرابعة، وهكذا إلىٰ أن تستقريها إلىٰ آخرها، وأن الفضل تناتج ما بينها، وحصل من مجموعها؟ إن شككت فتأمل: هل ترىٰ لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية؟ ...."[2].

(١) الشعر الجاهلي، المقدمة ص : ىٮ.

(٢) الدلائل : ٤٥.

وكذا قوله في إيضاح البعد التركيبي للنظم: "وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها علىٰ حسب ترتب المعاني في النفس ، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضم الشيء إلىٰ الشيء كيف جاء واتفق، ولذلك كان عندهم نظيراً للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض؛ حتىٰ يكون لوضع كل حيث وُضِع علة تقتضي كونه هناك ، وحتىٰ لو وُضِع في مكانٍ غيره لم يصلح[1].

ومن ذلك قوله في "إنَّ" وفائدتها المتحققة في الربط بين الكلامين : "... وذلك أنه هل شيء أبين في الفائدة ، وأدل علىٰ أن ليس سواء دخولها وأن لا تدخل ، أنك ترىٰ الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها وتأتلف معه وتتحد به، حتىٰ كأن الكلامين قد أفرغا إفراغا واحدا ، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر؟"[2].

ومثله قوله: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدق النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتحد أجزاء الكلام ويدخل بعضها في بعض ، ويشتد ارتباط ثان بأول ، وأن تحتاج في الجملة إلىٰ أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا في حالٍ ما يضع بيساره هناك. نعم، وفي حال ما يبصر مكانٌ ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء علىٰ هذا الوصف حد يحصره وقانون يحيط به؛ فإنه يجيء علىٰ وجوه شتىٰ، وأنحاء مختلفة"[3].

---

(١) الدلائل : ٤٩.

(٢) نفسه : ٣١٦.

(٣) نفسه :٩٣.

أقول: وما أحسب هذه "الوجوه الشتىٰ" و"الأنحاء المختلفة" إلا الأجناس الأدبية شعرها ونثرها وما يتولىٰ ضبط بنائها من مقومات ينماز بها كل جنس منها من غيره ، لذا رأيناه يختم علىٰ ذلك بقوله "وإذ قد عرفت هذا النمط من الكلام، وهو ما تتحد أجزاؤه حتىٰ يوضع وضعا واحدا؛ فاعلم أنه النمط العالي والباب الأعظم ، والذىٰ لا ترىٰ سلطان المزية يعظم في شيء كعظمه فيه"[1].

فهذا وغيره من لطائفه الكثيرة هو ما كان حريّا بمن جاءوا بعده من علماء البلاغة أن يعوه ويبنوا عليه مباني النصوص، ولا يتوقفوا بها عند ما وظفه الإمام فيه من دقائق الأساليب وفرائد الصور من الأساليب الجزئية، ويرفعوه إلىٰ مستوىٰ بناء النص الأدبي لكل جنس من أجناس الأدب المعروفة في زمانهم وما يستجد، وليت الإمام أتاح له القدر وما اتسم به من بعد النظر أن ينهض بعبء تعبيد الطريق لهم فيما تناوله من عيون الشعر وأساليب البلغاء فضلا عن القرآن الكريم والحديث الشريف، ولسنا ندعي أنه لم يفعل، بل نتمنىٰ أن لو كان قد زاد فيه، ولم يقتصر علىٰ ما تناثر في كتابيه، وفي الرسالة الشافية من نظرات في سياق بعض نماذجه التي نعرض لها هنا وغيرها مما لا يدخل تحت مظلة موضوعنا؛ أي الاستعارة غير المفيدة، وهو ما جلّىٰ فيه وجه النفع فيما استثناه من وجوه النقل التي تبينت فيها دلائل النفع.

(١) الدلائل : ٩٥.

(٦)

ومن جهة أخرىٰ رأينا الإمام عبد القاهر يحتج بقضية الترجمة لتأكيد وجهة نظره في الاستعارة غير المفيدة بأن من يترجم (الحفان) إلىٰ لغة أخرىٰ فيختار لفظا آخر يشير إلىٰ (صغار الحيوان) لا يكون مخطئا سواء وجد في هذه اللغة من الفروق بين أسماء الصغار مثل ما عندنا أو لم يجد في حين أن من يترجم (رأيت أسدا) إلىٰ: رأيت شجاعا، يكون مخطئا، فهو واضح البطلان في ضوء ما ذكرنا من أن الإمام بنىٰ الفرق بينهما علىٰ ما في الذهن من الفائدة من الاستعارة الثانية دون الأولىٰ، وقد تبين فيما سبق أنهما في الفائدة والجمال سواء، ولا شك أن المترجم يكون مقصرا بتركه تعبيرا من الأسلوب فيه مزية إلىٰ تعبير مجرد منها، ولعلنا نزيد الأمر تعقيدا إذا اضطررنا للاستطراد في قضية ترجمة الأدب عامة، والشعر خاصة، وهي قضية خاض فيها العلماء من قديم، وعرضت لها في بعض ما كتبتُ، ولا مفر من إجمال بعض الإشارات التي لا غنىٰ عنها مما توصلتُ إليه ومما انتهىٰ إليه الدارسون، ومجمل القول الذي انتهوا إليه أن الترجمة ليست كالأصل، وأن ترجمة الشعر تفسده، وأنها مهما بلغت من الدقة والأمانة فإنها لا تعدو أن تكون لصورة كانت في الأصل بالألوان واستحالت صورة باللونين الأبيض والأسود، وبعضهم وصفها مبالغا – أي ترجمة الشعر – بأنها "خيانة"، وردَّ عليه آخر ساخراً من مبالغته "يالها من خائنة جميلة"، لا علىٰ سبيل الانحياز لها ، بل لأنها مفيدة وضرورية، مع الاعتراف بأنها ليست كالأصل بحال، وأسباب ذلك كثيرة، منها:

– استقلال كل لغة بفلسفتها وقواعدها ومعجمها وبيئتها وتاريخها وغير ذلك.

- لغة الأدب ليست كلغة العلوم التي تعتمد علىٰ الحقائق والمسلمات، ولا تختلف باختلاف الأشخاص.

- لكل لغة أساليبها وبلاغتها، ومجازاتها وسائر أساليبها الفنية وجمالياتها خاصة مما لا يشترط ولا يطَّرد وجوده في غيرها.

- ندرة وجود من يحيط باللغتين إحاطة تامة.

- لغة الأدب والشعر خاصة لصيقة بفكر المؤلف ونفسه وثقافته، ولا يسهل النفوذ إلىٰ أغوارها لغير صاحبها.

- في الدراسات الحديثة (نظرية التلقي) يقولون إن كل مُتَلَقٍّ يختلف عن الآخر في تصوره للنص وتأويله ، وعندهم أن كل قارئ "مؤلف للنص"، حتىٰ القارئ المنماز (كالناقد ومحلل النص والمؤرخ الأدبي)، والمترجم كهؤلاء له فهمه الخاص للنص وعاطفته وتصوره الذي يقرب أو يبعد عن المؤلف قليلا أو كثيرا، وفي كل الأحوال لن يكون نسخة أخرىٰ من هذا المؤلف، فعندما يقدم علىٰ ترجمة نص يكون مؤلفا أكثر منه مترجما ومعبرا عما تكوَّن في نفسه من مشاعر وأفكار وصور ليست بالضرورة ما أراده المؤلف الأصلي ، قربية منه أو بعيدة.

- وبناء علىٰ ما سبق يتبين مدىٰ صعوبة تمكن المترجم من إعادة بناء النص وصياغته علىٰ النحو الذي نحكم به عليه بأنه هو النص ذاته في لغة أخرىٰ.

- وأخيرا - وبناء أيضا علىٰ ما تقدم - هل يستطيع أحد من البشر أن يدّعي إمكان ترجمة القرآن الكريم ؟ ، تلكم القضية التي أشعلت معارك عدة بين المسلمين أنفسهم ، وبينهم وبين غيرهم منذ العصر العباسي إلىٰ يومنا هذا.

- ولا غنىٰ لنا عن استطراد واجب في هذه القضية إلىٰ موقف من المواقف المعتادة التي دأب الغرب علىٰ اتخاذها منا نحن المسلمين ، وهذا يتلخص في

تناقض موقفهم بين رفضهم اعتماد الترجمة، أو الإقرار بأنها عين النص الأصلي، وهم في ذات الوقت ينعون علينا منع ترجمة القرآن الكريم، بل يُقْدم ثلة منهم علىٰ ترجمته وتحريفه ، ونشره علىٰ أنه هو القرآن الكريم، لا ترجمة معاني القرآن في حدود ما سمح به شرعنا الشريف!!

وهذا الذي أورده الإمام كلام لا أدري كيف أوجهه حيث يقول: "ولو أن مترجما ترجم قوله: وإلا النّعام وحفّانه ففسّر «الحفّان» باللفظ المشترك الذي هو كالأولاد والصغار، لأنه لا يجد في اللغة التي بها يترجم لفظا خاصّا ، لكان مصيبا ومؤدّيا للكلام كما هو. ولو أنه ترجم قولنا: «رأيت أسدا»، نريد رجلا شجاعا، فذكر ما معناه معنىٰ قولك: «شجاعا شديدا»، وترك أن يذكر الاسم الخاص في تلك اللغة بالأسد علىٰ هذه الصورة، لم يكن مترجما للكلام، بل كان مستأنفا من عند نفسه كلاما"[1].

ففي هذه الفقرة يصوب ما أقدم عليه مترجم الحفان من تجاهل للاستعارة، معتذرا عنه بأنه لم يجد في اللغة التي يترجم إليها لفظا خاصا به، ولا خلاف علىٰ ذلك لأن اللفظ وارد علىٰ أصله في اللغة علىٰ الحقيقة، ثم نراه يخطِّئ من يترجم الأسد إلىٰ شجاع لأنه تجاهل ما وراء الصورة من معنىٰ مجازي (الاستعارة)، ولا خلاف علىٰ هذا أيضا، ولكن ألا ترىٰ أن الإمام هنا يتجاهل الصورة السابقة التي نفىٰ عنها الفائدة في بيت أبي النجم: "والحَشْوُ من حَفَّانها كالحنظل"، وكانت حرية بأن تكون هي ما يقيسه بمقياس الترجمة الذي أتىٰ به، ويضمها إلىٰ ما طبقه علىٰ

(١) الأسرار ٣٥ : ٣٦.

صورة الأسد فهما سواء من حيث إنهما من قبيل الاستعارة، ولا بأس بعد ذلك في أن يضم له تعبير أسامة الهذلي الذي لجأ إليه في قضية الترجمة:

وإلا النَّعـــــامَ وحَفّانَـــــــــه وطَغْيَـا مــن اللَّهَــقِ الناشِــط[1]

وهو علىٰ حقيقته كما ذكرنا، ويخطِّئ ترجمة التعبير المجازي في بيت أبي النجم كما خطَّأ ترجمة الأسد ليتبين الفرق بين ترجمة الحقيقة وترجمة المجاز، فلا شك أن المترجم الذي يسوي بين اللفظين في سياق ترجمتهما يكون مخطئا؛ فشتان بين الحقيقة والمجاز، وما كان للإمام أن يقحم الترجمة في هذه القضية لأنها أتت بما يفسدها فيما أرىٰ[2].

(١) شرح أشعار الهذليين ٣/ ١٢٩٠ ، ونسب له ولأمية بن أبي عائذ في عدد من المصادر منها لسان العرب والمحكم وتاج العروس.

(٢) عرض إبراهيم أنيس لرأي الإمام في هذه المسألة في ثنايا عرضه لقضية الترجمة مستأنسا برأيه في ترجمة هذه الألفاظ فيما يشبه الموافقة لرأيه في خصوصية ألفاظ بعينها في اللغة العربية دون غيرها وأنه من العسير نقل اللفظ للغة ليس فيها ما يدل علىٰ المعنىٰ المجازىٰ ، وأنه لا حيلة للمترجم غير الرجوع إلىٰ المدلول العام للفظ ، وإن كان ذلك مما ينال من بلاغة النص وجمالياته ، وهذا اعتراف منه بقصور النص المترجم عن النص الأصلي (دلالة الألفاظ ١٦٩ : ١٧١).

(٧)

ويعود الإمام عبد القاهر إلىٰ هذا النوع من الاستعارة الذي سماه "غير مفيد" ليستثني منه ضربا لم ير بُدّاً من الاعتراف بأنه من المفيد وشرط له أن يكون في مواضع الذم، وذلك في موضعين ، قال في أولهما " ... وذلك أنه كلام يصدر عنهم في مواضع الذم"[1]، والآخر قوله :"فإذا كان من شرط هذه الاستعارة أن يؤتىٰ بها في مواضع العيب والنقص فلا شك في أنها معنوية"[2] كقولهم: إنه لغليظ الجحافل وغليظ المشافر وغير ذلك، وعكف علىٰ تأويل علة الفائدة في هذه الاستعارات بأنها من جهة المعنىٰ لا من جهة اللفظ ثم جاء بمثال آخر ضمه إليها هو قول الأعرابي: كيف الطلا وأمه؟ (سيأتي)، وهو ليس في مقام ذم كما هو واضح .

وجلي أن ما وضعه الإمام من فروق بين الاستعارة المفيدة وغير المفيدة ليس بشيء؛ لعدم إمكان الجزم بأن استعارة اللفظ لا تنسحب علىٰ المعنىٰ، وكذا عدم إمكان نفي إرادة المشابهة بين المستعار وما استعير له، وكذلك القرينة نرىٰ أن المعول فيها علىٰ السياق لإدراك إرادة المشابهة وهو ما حرصنا علىٰ إدراجه في تحليلاتنا السابقة (وإن يكن المقام لم يسمح بالتوسع فيها وإعطائها حقها)، والغريب أن الإمام لجأ إلىٰ السياق في بعض نماذجه دون بعض، كما فعل في وصف استعارة الحافر للقدم في قول مزرد أو جبيهاء الأشجعي:

فما رقد الولدان حتىٰ رأيته ... علىٰ البكر يمريه بساق وحافر

(١) الأسرار ٣٦.

(٢) نفسه : ٣٩.

إذ رجع إلىٰ السياق، مما سبق البيت ومما بعده ليثبت فائدة هذه الاستعارة ويرد قول من قال بأن الشاعر غير اللفظ مراعاة للقافية لا غير[١]، وحبذا لو فعل ذلك مع سائرها؛ إذن لما كان ثمة حاجة لهذا الضرب من التقسيم لاسيما أنه كان حريصا علىٰ ربط أجزاء النص وأطرافه في كثير من المواضع، ومن ذلك قوله "وليس إذا كان الكلام في غاية البيان، وعلىٰ أبلغ ما يكون من الوضوح، أغناك ذلك عن الفكرة إذا كان المعنىٰ لطيفا، فإن المعاني الشريفة اللطيفة لابد فيها من بناء ثان علىٰ أول ورد تال إلىٰ سابق"[٢] ولعله لو فعل مثل ذلك مع سائر شواهده لرأىٰ في مثل هذا النقل أنه إما أن يكون استعارة أو لا يكون، فهو استعارة حال إدراك الناقل بكل واعيته أنه خاص بغير ما نقله عنه وبقصد إلحاق الثاني بالأول في صفة من صفاته أو أكثر، ولا يكون استعارة بالمرة إذا كان هذا الناقل جاهلا بما سبق أو متهاونا علىٰ حد ما قدمنا في صدر المقال.

ولعله من المفيد هنا أن نعرج علىٰ السكاكي الذي منع الاستعارة في قولهم: "رأيت إبلا مائة ليس فيها راحلة"، وهو يريد الناس لعدم وجود قرينة صارفة عن أصل المعنىٰ المراد[٣]، ولست أدري كيف غاب عنه التفريق بين من يعرف الحديث النبوي الشريف: "إنما الناس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة"[٤]، ومن لا يعرفه؛ فالأول سيفهم المراد ويدرك أنه استعارة، والآخر ليس مثله لجهله بالقاعدة

(١) الأسرار ٣٦ وما بعدها.

(٢) نفسه ص ١٤٤.

(٣) المفتاح : ٣٨٨.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الرقاق رقم ٦٤٩٨.

المعرفية التي مصدرها البيئة والثقافة والتراث، ونظير ذلك بيت علي بن الجهم المشهور:

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوىٰ من حيث أدري ولا

فالذي لا يعرف ما تواضع عليه العرب من تشبيه العيون الجميلة بعيون المهالن يهتدي إلىٰ مراد الشاعر، بل سيعتقد أن ثمة بقراً علىٰ الحقيقة بهذا الموضع، لاسيما إن كان هواه في أكل اللحم!، والعربي سيدرك المراد للعهد والإلف ومخالطة البيئة حتىٰ ولو عدمت القرينة في (جلبن) وما بعدها؛ لأن تنزيل ما لا يعقل منزلة العاقل معروف، ومنه قوله تعالىٰ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة النحل:٧٩]..، وعلىٰ هذا نرىٰ أن ما فرق فيه الإمام بين ضربي الاستعارة اللفظية من هذا النوع الذي عده غير مفيد ، واستثنىٰ منه بعضا ألحقه بالمفيد لا من جهة المعنىٰ كما ذكر، وإنما من جهة الظهور والخفاء ومراعاة السياق في البناء الفني للنص الأدبي عامة والشعر خاصة ، وعندها يثبت أنه لا شيء من ذلك يخلو من الفائدة ، اللهم إلا ما صدّرنا به هذه المقالة من ضروب النقل جهلا أو تهاونا فلا يعد استعارة بالمرة.

و قد أتىٰ الإمام بنموذج بَيِّنِ الظهور في تحقق الفائدة فيما فيه تحلية وتجميل ومدح، وهو ما قاله ابن لسان الحمرة الذي دخل بيته عطشان جائعا، فبشّروه بولد وُلِد له، فقال: ماذا أفعل به، آكله أم أشربه ؟! فسمعت امرأته ذلك فقالت: غرثان فاربكوا له، فأتوه بالطعام فأكل حتىٰ شبع، وشرب حتىٰ ارتوىٰ، واهتز طربا، وقد ثاب إلىٰ نفسه، فقال: كيف الطلا وأمه ؟، فهذا الرجل الذي لم يأبه بولده وهو شارد اللب من الجوع، ولفضل عنجهية وبداوة فيه ، هو نفسه الذي لما طابت نفسه لم

يكتف بالسؤال عنه وعن أمه حتىٰ جعله طلا وجعل أمه ظبية، فهذا عند الإمام من المفيد الذي انصرفت الاستعارة فيه إلىٰ المعنىٰ، وما هو بذم ومع هذا وضعه بإزاء ما جعل شرطه الذم آنفا، وليس له من القرائن إلا المقام الذي قيل فيه، وشبيه به ما يشيع علىٰ ألسنة الناس مما سبق ذكره من تشبيه الأطفال بالأشبال مرة، والبذور أخرىٰ، وبالكتاكيت ثالثة .. وكلها تستعمل في استعارة من هذا القبيل، وكذا قولهم فيهم "عفاريت" وتتجاور كلها بدلالاتها التشبيهية لا فارق فيها بين ما قصد به المدح وما قصد به الذم، وفي هذا الكفاية فيما أحسب.

لذا كان المتوقع أن ينفي الإمام وجود استعارة غير مفيدة أسوة بما فعل في باب التقديم والتأخير حيث خطَّأ من يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين، فيجعل مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض[1].

(١) دلائل الإعجاز : ١١٠.

(٨)

وإذا ولينا وجوهنا شطر القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تبين لنا وجود هذا الضرب من الاستعارات فيه، وهو ما يستحيل وصفه بأنه غير مفيد وتسليمنا بأنه مفيد ينسحب علىٰ نظائره في أساليب الأدباء والشعراء ما توافرت له أطرافه وقرائنه، ومنه قوله تعالىٰ ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ [سورة القلم:٩-١٦].

فقد بلغ الكبر والغطرسة والاعتزاء من هذا الإنسان بما وهبه الله من مال وبنين حداً جعله يطغىٰ في إنكاره التنزيل، متغافلا عن عيوب ذاته ونقائصه، متناسيا نعمة الله عليه، فكان لابد من تذكيره بهذا وذاك، ثم إعلانه بما استوجبه من اللعن والطرد والإذلال في الدنيا والآخرة جزاء بطره نعمة الله وتكبره؛ فلم ينذره ناراً وقودها الناس والحجارة، ولم يخوفه يوما لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا شيئا مما درج عليه أسلوب القرآن مع نظرائه، فكل ذلك لا يؤثر فيه ولا يهز شعرة من رأسه لأنه لا يؤمن به ولا يقع منه موقع التصديق، لذا اكتفىٰ بعقوبة واحدة فقط "سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ "، وهنا موضع العجب، أبعد كل ما فعل هذا الجاحد لا تقع عليه عقوبة إلا هذه! إنها إذن - لو تدبرناها – لأشد من كل ما ذكر، نعم إنها لكذلك في ضوء ما اعتاده الإنسان من الشموخ بأنفه أنفةً؛ فجاء إلىٰ موطن عزته هذا ووسمه عليه سمة باقية دنيا –كما ورد في بعض الأخبار – وآخرة – كما ورد في أخبار أخرىٰ – تجعله يعاني ذلاً أبديا لا ينمحي(١).

(١) لا يخفىٰ أن هذه الآية ونظائرها هي معجزات قرآنية من نوع خاص جداً، حيث إنها=

قال الزمخشري(١): "وفي لفظ الخرطوم استخفاف به واستهانة"، وقال الآلوسي(٢): "وفي لفظ الخرطوم استهانة لأنه لا يستعمل إلا في الفيل والخنزير، ففي التعبير عن الأنف بهذا الاسم ترشيح لما دل عليه الوسم علىٰ العضو المخصوص من الإذلال، والمراد: سنُهينُه في الدنيا ونُذله غاية الإذلال"، فكون الخرطوم للخنزير يجعل الواحد منا ما إن يسمع هذه اللفظة حتىٰ يتمثل الذي نزلت فيه خنزيرا بجامع العضو المستعار؛ ليبلغ بالذليل غاية التهكم والسخرية منه في حال إذلاله في الدنيا والآخرة بكونه ملحقا بالخنازير كما فعل الله تعالىٰ ببني إسرائيل بكفرهم، وبغير لفظة الخرطوم لم يكن هذا التصور ليستفاد، ومن هنا استحق التعبير ما وصفه الآلوسي بقوله بعد(٣): "وزاد ذلك حسنا ذكر الخرطوم"، ويزيد بعضهم كون الخوطوم مجازا عن الوجه، ولكن جريان الاستعارة التهكمية بالكناية عن الخنزير أبلغ في السخرية ومغنية، لاسيما أن المقصود بالأنف موطن الشموخ والعزة كما قدمنا.

ومن هذا القبيل ما ذكر المفسرون في قوله تعالىٰ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ... ﴿١٤٦﴾﴾ [سورة الأنعام:١٤٦]، من أن الظفر استعارة لذي

= تخبر عن شخص مُعيَّن (هنا الوليد بن المغيرة أو غيره) وفي غيرها (أبو لهب مثلا)، أنه قد كتب عليه الشقاء الأبدي، بمعنىٰ أنها تجزم سلفا بأنه لن يؤمن، فكان يسعه في حياته أن يعلن إيمانه تكذيبا لما جاء في القرآن، في حين أن غيره ممن سكت عنهم القرآن من المعاندين كأبي سفيان وعبد الله بن الزبعرىٰ قد أسلموا، وهو الموسوم علىٰ خرطومه لم يفعل؛ فصدّق القرآنَ فيما تنبأ به في حقه من حيث أراد أن يكذبه !.

(١) الكشاف ٤/ ١٤٣.

(٢) روح المعاني: ٢٩/ ٢٩.

(٣) نفسه.

المخلب والحافر(١)، فيدخل بهذا تحت هذا الباب من الاستعارة عند أصحاب هذا القول، حيث استعار عضوا من ذي ظفر (وليكن الإنسان، باعتبار أن أصحاب المعاجم قدموه علىٰ غيره) ليحل محل العضو المماثل من الحيوان المحرم عليهم، وهذا علىٰ تقدير الإمام عبد القاهر من قبيل الاستعارة اللفظية عديمة الفائدة، ولكن المتدبر لمضمون الآية لا يعدم فائدة جليلة، وإن دقت فإنما دقت لتجل ؛ فمقام التحريم مقام عظيم، وبيان غلظ الحرمة من مقاصد القرآن الجليلة التي تحتاج في تصوير بشاعتها إلىٰ أدق وسائل البيان، كما جاء فيما يناظره من تحريم الغيبة علىٰ سبيل التشبيه الضمني في قوله تعالىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحجرات:١٢]. ، إذ جعل المغتاب كآكل جيفة أخيه الذي اغتابه، فهذا مثل ذاك، حيث إنه لما أراد تحريم بعض اللحوم علىٰ بني إسرائيل ابتلاء أو عقوبة، وسبق في علمه تعالىٰ أنهم كعادتهم يخالفون أمره بشّع الأمر وفظَّعه في أعينهم ووعيهم تغليظا لهذه الحرمة ؛ فنزَّل هذا المحرَّم منزلة الإنسان باستعارة الظفر من الإنسان ، فصار من يخالف النهي عن أكل هذه المحرمات كمن يأكل لحم

(١) اختلف العلماء في تحديد هذا المحرم علىٰ ثلاثة أوجه ، والذي يعنينا منها الوجه الذي حملوه علىٰ الاستعارة وهم كُثُر، منهم من اكتفىٰ بأنه مجاز كالبيضاوي وأبي السعود والشوكاني، ومنهم من صرح بالاستعارة كالقرطبي، والبغوي يحكيه عن بعض المفسرين، وابن الجوزي يحكيه عن ابن قتيبة، وزاد أن العرب تجعل الحافر والأظلاف موضع القدم استعارة، والجوزي هو من أورد الأوجه الثلاثة المتقدم إشارة إليها، ينظر تفصيل ذلك في تفسير الآية في التفاسير المشار إليها.

الإنسان، وهو ممقوت طبعا وغير متصور، فتحصل من هذه الصورة ما لم يكن ممكنا تصوره من غلظ الحرمة بدونها.

وهذا الضرب من الاستعارات هو من الأساليب الشائعة في القرآن الكريم، ولا شك في جلالة فائدته ولكن كثيرا من هذه الفائدة فات متأخري المفسرين أن يدركوه بسبب ما درج عليه متقدموهم، والمعجميون أيضا من إدراج بعض الاستعمالات القرآنية في باب الحقيقة هروبا من القول بالمجاز الذي قبحه بعضهم ظنا منهم أنه يسيء للقرآن؛ فأساءوا هم للقرآن بتفويت إدراك فوائد جليلة ومعجزات قرآنية كانت حرية بالتنبه لها لو تم وضع كل من الحقيقة والمجاز في موضعه بحسب ما تواضع عليه العرب إبَّان نزول القرآن، وأحسب أن من هذا القبيل كلمة (الناصية) في قوله تعالىٰ ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة هود:٥٦]. فبعض المفسرين سكت عنه ، وبعض آخر عرّف الناصية بأنها من منبت الشعر من مقدم الرأس من إنسان أو حيوان ، وكذلك بعض المعجميين، ولكن الذي أراه أن الناصية في الأصل هي منبت الشعر من مقدم الرأس من الإنسان فقط لسبب واضح وهو أن الناصية تفرق بين متمايزين، وناصية الإنسان هي ما ينطبق عليه ذلك لأنها تفرق بين ما فيه شعر من الرأس وما ليس فيه شعر من الوجه، ووجه الحيوان كله شعر كرأسه، فاستعمال الناصية له يكون علىٰ سبيل الاستعارة من الإنسان، فإذا رجعنا للآية وأعملنا فيها الوجهين: استعمال اللفظ علىٰ الحقيقة كما أوهم متأخرو المفسرين والمعجميين ، واستعماله علىٰ المجاز مستعاراً من الإنسان رأينا أن الأول لا يعدو أن يكون في معناه أن الله يأخذ كل دابة تدليلا علىٰ القدرة – منصرفا إلىٰ الإنسان

مقصورا عليه – تأسيا بقوله تعالىٰ ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [سورة العلق:١٥-١٦].، أما الثاني المستعار فيزيد علىٰ المعنىٰ أن الله يأخذ الكائنات جميعا بما فيها الإنسان متىٰ يشاء وكيف يشاء وإن عزت وتعاظمت واستكبرت كما الإنسان (متحصل من الاستعارة) فإنها لا تعجزه، وهي بهذا أنسب للمقام الذي قيلت فيه حيث بلغ هود مع قومه حداً من المجادلة والخصام والعنت من قِبَلهم والخلاف عليه والعناد والكيد والتهديد بالطرد أو القتل؛ فجاء رده علىٰ كل ذلك ﴿.. إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة هود:٥٤-٥٦].، حيث أنزلهم أولا منزلة الدواب (مَّا مِن دَآبَّةٍ) استهانة بهم وبكيدهم، ثم رفع الدواب إلىٰ مقام العزة والقوة باستعارة الناصية من الإنسان، وعندها جعلهم مأخوذين بعزة الله التي قهرت المتكبرين والمتجبرين جميعا وأبطلت كل ما دبروه من كيد ومكر ﴿..وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة إبراهيم:٤٦].

ومن هذا الضرب من الاستعارات في القرآن ما جاء في مواضع التكريم والتحنن وإلانة القول كالتعبير عن الخلق والنمو والتربية بالإنبات، وقد ورد في كلام العرب "ما أحسن نابتة بني فلان" لأولادهم وأولاد أولادهم، وهو مجاز، وكذا قولهم "نبت ثدي الجارية" نبوتا إذا نهد ، وقولهم "أنبت الغلام"، وقولهم "إنه لفي منبت

صدق" أي في أصل صدق، وقولهم "في أكرم المنابت"، وممن أستعمله حديثا شاعر النيل حافظ إبراهيم، حيث يقول(١):

أهلا بنابتة البلاد ومرحبا ... جددتمو العهد الذي قد أخلقا

لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم ... فلرب مغلوب هوىٰ ثم ارتقىٰ

وهذه التعبيرات كلها من المجاز، نص علىٰ ذلك الزمخشري وغيره(٢)، وفي قوله تعالىٰ ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٧﴾ [سورة آل عمران:٣٧]، أسبغ علىٰ مريم عليها السلام صفة الإنبات نباتا حسنا، وعدد من المفسرين قالوا إنه مجاز عن التربية الحسنة(٣)، ومن يتدبر هذا التعبير يجد فيه ما يتناسب والنفحة الربانية التي شملت آل عمران جميعا وتحقق بها معنىٰ الاصطفاء الذي تصدر القصة، وترجمه ما عُطف عليه من كفالة زكريا عليه السلام، وما منَّ الله تعالىٰ به عليها من الرزق الذي أثار العجب لدىٰ مربيها عليه السلام(٤)، فناسبت هذه الاستعارة السياق الذي وردت كل التناسب.

---

(١) ديوان حافظ من صباه إلىٰ وفاته : ١٣٧.

(٢) أساس البلاغة، الأزمنة والأمكنة ٢٧٨ وفي معجم مقاييس اللغة: النون والباء والتاء أصل واحد يدل علىٰ نماء في مزروع ، ويستعار، وتاج العروس وغيره ، مادة : نبت.

(٣) الزمخشري والبيضاوي وأبو السعود والنسفي والشوكاني.

(٤) وما أجمل نبرة التعجب والاستغراب والدهشة التي برع الشيخ أبو العينين شعيشع في تلاوتها وهو يكرر اسم مريم، وهي من أكثر التلاوات تأثيرا في السامع وبيانا لموضع التعجب من بديع صنع الله مع المصطفين من عباده عليهم وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [سورة نوح:١٧]، أي خلقكم من طينة الأرض كما النبات ، وقد نص العلماء علىٰ أنه مجاز أو استعارة للإنشاء[1].

وقد يقول قائل إن هذا الضرب من الاستعارات يختلف عن سابقه لما توافر فيه من شروطها مع وقوع الاستعارة تبعية في الفعل، قلت نعم ، جرت هذه في الفعل والإمام قصرها علىٰ الاسم، ومع ذلك رأينا الزمخشري يقيسها علىٰ ما يجري في الأسماء، وذلك في تفسير قوله تعالىٰ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [سورة النور:٤٥]، فقال: "فإن قلت لم سمىٰ الزحف علىٰ البطن مشيا قلت علىٰ سبيل الاستعارة كما قالوا في الأمر المستمر "قد مشىٰ هذا الأمر"، ويقال "فلان لا يتمشىٰ له أمر" ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفلة والمشفر مكان الشفة ونحو ذلك أو علىٰ طريق المشاكلة لذكر الزاحف مع الماشين"، وإني وإن كنت أرجح قوله الأخير بالمشاكلة في هذه الآية أرىٰ أنه لم يفرق في قوله الأول بالاستعارة بين ما يجري منها في الفعل وما يجري في الاسم، وعليه نرىٰ – كما نبهنا عليه آنفا – أن الفارق بين الضربين يكمن في الوضوح والخفاء أو القرب والبعد، ويبقىٰ أن النقل هو النقل سواء أكان المنقول منه هو عين المنقول إليه، أم قريب منه أم ملتبس معه بأية رابطة أدت إلىٰ وجود وجه قريب للشبه أو مناسب له علىٰ ما هو معلوم ومطلوب في الاستعارة اسما كان أو مصدرا أو فعلا، وعليه فلا وجه للتفرقة بين أنواع الاستعارة اللهم إلا ما كان منها بلا وعي من الناقل، وهذا ما نفينا عنه كونه استعارة من أصله.

(١) الذهبي والبيضاوي وأبو السعود والنسفي وابن عطية والشوكاني والآلوسي.

الخلاصـــة

إن الظاهرة التي ألقينا علينا أضواء الدرس في هذه المقالة تقتصر في الظاهر علىٰ موضوع فرعي يدخل تحت المجاز اللغوي في علم البيان، وهو ما وسمه بعض العلماء بالاستعارة "القبيحة" أو "الفاحشة"!، واختار لها الإمام عبد القاهر اسم "الاستعارة غير المفيدة"، ولكنها، أي المقالة، تكشف عن بعض الاضطراب في تقرير الأحكام، وهو أمر لا يكاد يسلم منه عالِم مهما علا كعبه في العلم الذي يتعاطاه، الأمر الذي لا ينال من مكانته ولا يحط من قدره مطلقا، ولهذا نؤكد أن مناقشة الإمام عبد القاهر في مسألة كهذه ليست إلا محاولة للكشف عن بعض ما نال الدرس اللغوي العربي في العصور الزاهرة لحضارة الإسلام من تقصير نتج عن العكوف علىٰ جمع اللغة وتقعيدها حرصا علىٰ سلامتها بعد ظهور العجمة، وهي غاية نبيلة بلا ريب، وتمثل هذا القصور فيما يخص الدرس اللغوي في مجال البلاغة والنقد من عدم الاهتمام بالجوانب الجمالية الاهتمام اللائق بها.

لعل ما سبق من تحليل بعض النصوص قد وضح أهمية ردِّ الشاهد إلىٰ موضعه من النص لاستكشاف المراد من تضمين السياق لفظة أو تعبيراً أو صورة، والتوصل إلىٰ حكم سديد علىٰ هذا النص أو هذه الظاهرة المنظور إليها عند الاستشهاد بها في تحليل أو دراسة أو استنباط حكم أو قاعدة لغوية أو أسلوبية أو حتىٰ فقهية أو قانونية -إن جاز ذلك-، ولعل هذا النهج قد وفق في بيان فائدة هذا الضرب من الاستعارات.

وكنت قد ألححت في بعض ما أخرجته من كتابات فيما سبق علىٰ فكرة التعويل علىٰ السياق في استنباط الدلالات فيما أطلقتُ عليه (البناء الفني للنص الأدبي)، وهأنذا أعاود الكرة بنشر هذا المقال بتمامه بعد معاودة النظر فيه، وكنت

قد اجتزأت منه ببعض الإشارات الداعمة للفكرة فيما سبق، ولعل ما قدمته هنا يكون تعزيزاً للدعوة إلىٰ تأسيس علم مضاف لعلوم البلاغة العربية الثلاثة يُعنىٰ بدراسة النص في بنائه بتمامه والتقعيد له، أي العلم، أسوة بما أجتهد العلماء الأفذاذ في هذه العلوم من تحقيق ما يقرب من الكمال، ويحدوني الأمل في أن يحرك هذا وما سبقه بعض علماء اللغة والأدب لاستقراء لغة الشعر العربي واستخراج ما استعمل العرب في أساليبهم من حقيقة ومجاز ومحاولة استدراك ما وقع من خطأ أو قصور في فهم بعض النصوص وتقرير بعض الأحكام، ثم يعاد النظر في ضوء ذلك في أساليب القرآن لاستنباط الدلالات الجمالية العميقة وما وراءها من تأويل ربما يكون له أثره في تجديد النظر في علوم القرآن، وكذلك النقد الأدبي، وما بين هذا وذاك، ولا يفوتني أن أضيف صوتا إلىٰ الأصوات المناشدة لمجامع اللغة العربية بتأسيس مشروع المعجم التاريخي للغة العربية الذي نعول عليه في تحقيق الكثير مما نصبو إليه من طموحات للغتنا الخالدة. والله ولي التوفيق.

كاظم الظواهري

السبت ٢٠ربيع الثاني ١٤٤٥، ٢٠٢٣/١١/٤م

المصادر والمراجع

- الأزمنة والأمكنة : المرزوقي ، ت:خليل منصور – دار الكتب العلمية – بيروت، سنة ١٩٩٦م.
- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، ت / محمود محمد شاكر، ط/ المدني – القاهرة/ جدة: ١٤١٢هـ=١٩٩١م.
- الأصمعيات: ت/ أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون – دار المعارف ، مصر ط/ ٥ / ١٩٧٩م.
- البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري : محمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة ، ط٢/ ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- التحدي المنتظر للبلاغيين العرب : علم البناء الفني للنص الأدبي – كاظم الظواهري دار الهداية ، القاهرة ١٤٣١ / ٢٠١٠م.
- التصوير البياني: محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة ، الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م.
- جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشي، دار صادر ، بيروت
- الخصائص- ابن جني، ت: محمد علىٰ النجار– عالم الكتب بيروت ، ط٣/ ١٤٠٣ – ١٩٨٣
- دلائل الإعجاز : عبد القاهر الجرجاني ، محمد عبده ومحمد محمود الشنقيطي، ط٢/ ١٣٣١ المنار، وطبعة مكتبة الخانجي، ت محمود محمد شاكر ٢٠٠٠م.
- دلالة الألفاظ: إبراهيم أنيس، دار المعارف، مصر ط ٦/ ١٩٨٠
- ديوان الأسود بن يعفر : صنعة نوري حمودي القيسي ، وزارة الثقافة والإعلام ، بغداد ١٣٨٨/ ١٩٦٨م.
- ديوان حافظ من صباه إلىٰ وفاته : مكتبة الهلال ـ مصر ـ١٣٥٣/ ١٩٣٥
- ديوان الحطيئة: تحقيق نعمان محمد أمين طه، الخانجي مصر ١٤٠٧/ ١٩٨٧م.
- ديوان طرفة بن العبد ـ المكتبة التجارية بيروت.
- ديوان العجاج : ت / سعدي ضناوي – دار صادر – بيروت ١٩٩٧م.
- ديوان النابغة الجعدي : ت / واضح الصمد ، دار صادر ، بيروت ١٩٩٨م.

❖ ديوان النابغة الذبياني : ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، مصر ١٩٧٧م.
❖ رؤىٰ جديدة في الاستعارة غير المفيدة : أحمد هنداوي هلال – مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ع/ ١٤ / ١٤١٤-١٩٩٤م.
❖ شرح أشعار الهذليين : أبو سعيد السكري ، ت/ عبد الستار أحمد فراج ، مكتبة دار العروبة مصر ـ ١٣٨٤/ ١٩٦٥م.
❖ الشعر الجاهلي : دراسة في منازع الشعراء – محمدمحمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة ، ط ٢/ ١٤٣٣ – ٢٠١٢م.
❖ الطرائف الأدبية : (جمع وتحقيق ودراسة عبد العزيز الميمني) لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٣٧م.
❖ المثل السائر: ابن الأثير، ت: الحوفي وطبانة ، دار نهضة مصر ١٩٧٣م.
❖ مختار الشعر الجاهلي :أأعلم الشنتمري ، تحقيق وشرح م صطفىٰ السقا ـمصطفىٰ الحلبي ط ٤/ ١٣٩١ – ١٩٧١م.
❖ المعادل الموضوعي في الشعر الجاهلي : كاظم الظواهري – دار الهداية ١٤٣١ – ٢٠١٠م.
❖ مفتاح العلوم : السكاكي- ت.نعيم زرزور – دار الكتب العلمية لبنان ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.
❖ منتهىٰ الطلب من أشعار العرب : محمد بن المبارك ، ت : محمد نبيل طريفي دار صادر بيروت سنة ١٩٩٩م.
❖ بالإضافة إلىٰ كتب التفسير المذكورة بالحواشي.